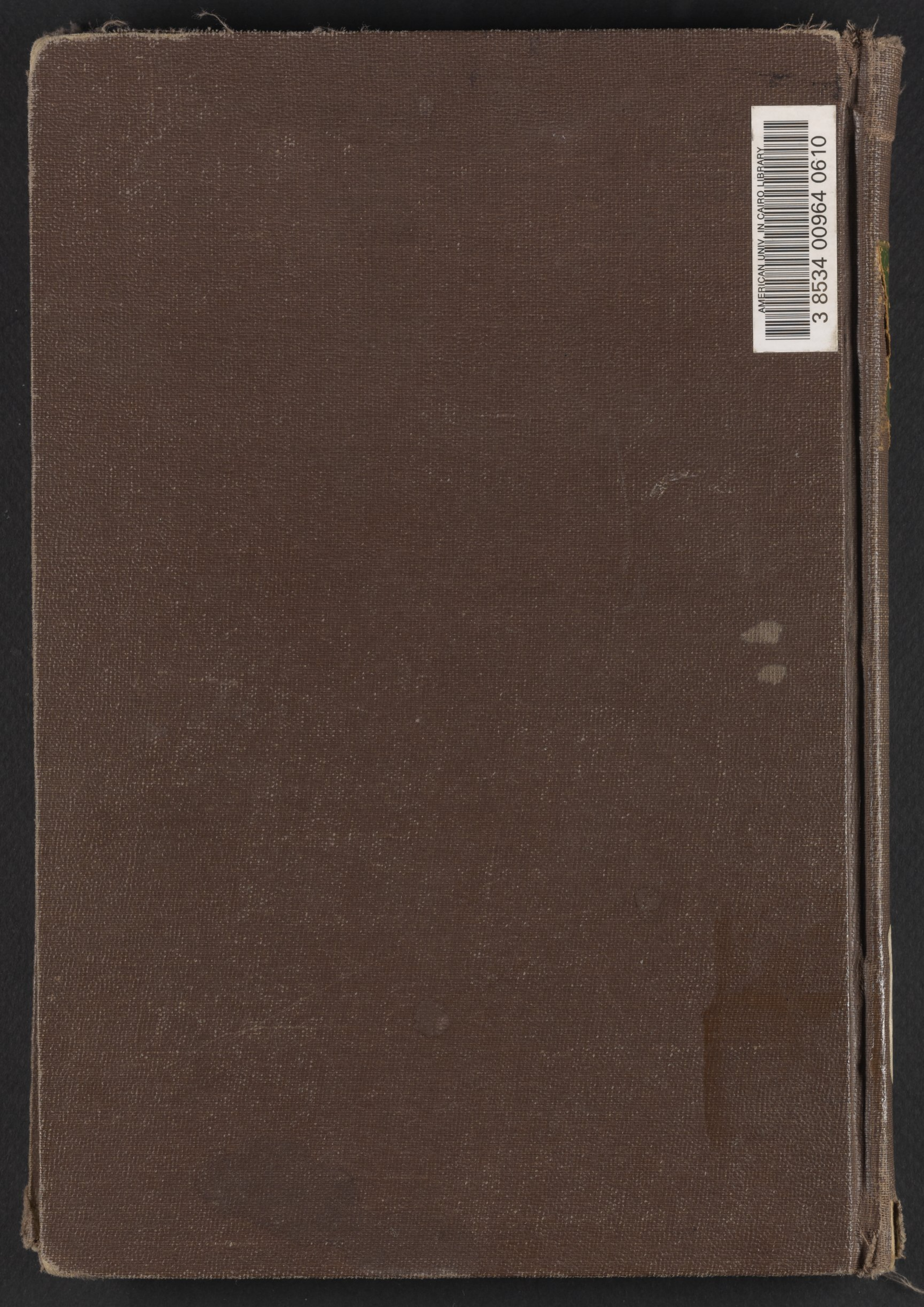
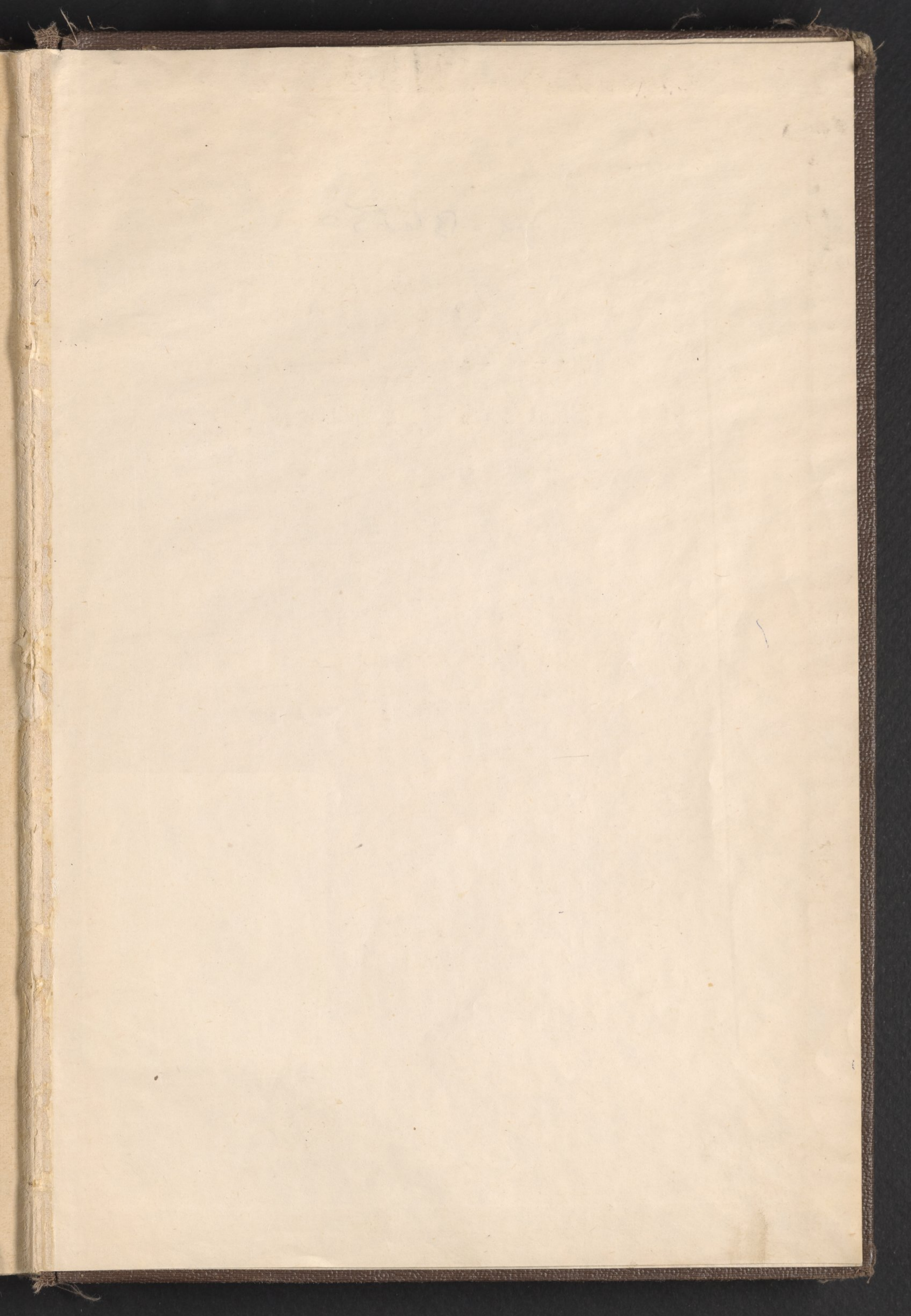

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00964 0610





الاسلام

﴿ والرد على منتقديه ﴾

من آثار الاستاذ محمد عبده مفتي الديار المصريه سابقا

بعض مقالات حماة الاسلام فى العصر الأخير

﴿ اكمل طبعه ﴾

محمد أمين الخانجى الكتبي وشركاه

سنة ١٣٢٧ هجريه

(مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مؤيد الاسلام ومعلى كلمته . والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل مبعوثيه ورسول رحمته . وآله وصحبه وسلم ﴿ وبعد ﴾ فقد وصل الي مجموعة فى الاسلام والرد علي منتقديه جمعت من آثار الاستاذ مفتى الديار المصرية سابقا الشيخ محمد عبده ومن مقالات حماة الاسلام فى العصر الأخير قام بطبعها غير واحد فحال دون إكمالها وفات الاستاذ عليه الرحمة والرضوان أو أمر آخر وكلنا يعلم الاستاذ ومكانة مقامه في الذب عن الاسلام والرد على منتقديه فأحببت أن لايفوت المجتمع الاسلامى ذلك الأثر الجليل فكلفت صديقى الفاضل السيد محمد بدر الدين النعسانى أن يصل مقطوع ذلك المجموع بمقدمة توضح مضمونه . وتفصح عن مكنونه . فاحسن بذلك جزاه الله خير الجزاء . ونظرت الي آخر المطبوع فوجدته أدرج فيه خطبة اللورد كورزون حاكم الهند فى مدرسة عليكدة الاسلامية المدرجة فى عدد ٣٣٥٩ من جريدة المؤيد فاكتها نقلا عنها وبذلك ختمت المجموعة لئلا أشوب كلام الاستاذ بغيره : وعنونته باسم ﴿ الاسلام والرد على منتقديه ﴾ ليطابق معناه ومن الله استمد التوفيق ؟

تحريراً فى ١٦ ذى القعده سنة ١٣٢٧

كاتبه

محمد امين الخانجى

المقدمة

ان التعاليم الاسلامية التى جاء بها النبي العربى محمد صلى الله عليه وسلم لنشرها بين الناس من عرب وفرس وروم وقبط وهند وغير ذلك من الامم التى كانت تشغل وجه المسكونة حين بعثته وحمل الناس على الاخذ بأحسنها والارشادات الحسنة التى بعث لتطهير الأنفس من رعوناتها بواسطتها لم تكن بالتعاليم التى تقبل النقض ولا الارشادات التى يتوجه اليها الطعن

ان تعاليم الدين الاسلامى الحنيف مبنية علي أساس من الحكمة متين لا يزعزعه شيء ولا يؤثر عليه مؤثر ومباديه عقلية بحتة لم يدخلها شيء من أوهام النفس ولا من خرافات الاعتقادات ولا فاسدات العادات ولم تبن على إلف قوم مخصوصين من استحسان شيء واستقباح آخر وانما بنيت علي صرائح العقول التى تثبت فى كل زمان وتصلح لكل قوم

من ذلك كانت الدعوة اليه عامة لا تختص بعربى دون عجمى ولا بحضرى دون بدوى لموافقة مباديه لكل الامم على شكل واحد ونسبة واحدة : وهذه الميزة لم تكن لدين من الاديان السماوية ولا لشريعة من الشرائع الوضعية فلقد يرى الناظر الى الاديان السالفة أن تعاليمها لا تليق الا بقوم بأعيانهم ويستحيل تكليف غيرهم بها من سائر الاقوام لعدم امتزاجها بطباعهم وارتباطها بنفوسهم ولذلك كانت الدعوة اليها خاصة وكانت أبداً معرضة للتغيير والتبديل على حسب ما يعرض من حاجات الامم ويطرأ من الانقلابات الكونية وكذلك الشرائع الوضعية التي يظن واضعوها أنهم أشرفوا على طبائع

الامة واخلاقها وعوائدها من كثب ووضعوا لها قانونا يصلح له حالها ويستقيم عليه أمرها لا يلبثون اذا أخذوا في التطبيق أن يجدوا تباينا عظيما وإختلافا كبيراً فيعمدوا الى التغيير والتبديل والنقض والابرام طلبا لغاية لا يمكن ادراكها“

قسم الدين الاسلامى الحنيف تعاليمه أقساما (١) الاقرار بصانع واحد والاعتراف بالمعاد (٢) الافعال البشرية المتعلقة بالأمور الأخروية (٣) الافعال البشرية المتعلقة بانتظام الامور المدنية وصلاح حالة المعاش هذه هى الاقسام وتحت كل قسم أقسام كثيرة ليس هذا موضع ذكرها

فاما الاقرار بالصانع والاعتراف بالمعاد فلم يكونا فى دين من الاديان بالشكل الذى كانا عليه فى الدين الاسلامى الحنيف وضوحا وجلاء وان اتفق مع سائر الاديان السماوية فى أصل المعنى ولذلك لم يقع فى التوحيد شيء من الشوائب التى وقعت في الاديان الأخرى من الحلول والاتحاد والتجسيم والتشبيه والتعطيل وغير ذلك مما يخل بمقام الالوهية وان سمعت بشيء من هذه الآراء فى المقالات المنسوبة الى أهل الاسلام فان ذلك مما أدخله الزنادقة الملحدون أعداء الدين الذين قصدوا النكاية بالدين والايقاع به وتترسوا بالدين من أن تنالهم يد عقاب وليس ذلك من تعاليم الاسلام ولا فى تعاليمه الواضحة ما يوقع فى مثل هذه الشبه والارتباكات

وكذلك الاعتقاد بالمعاد لم يدخله شيء من الاوهام والخرافات التى جاءت فى الاديان الأخرى وانما جاء الاسلام بالمعاد مقتصراً فيه على مالابد منه لصلاح النشأة الأولى وعلى ما هو ضرورى بعد التسليم بالصانع القديم والاعتراف بالتكاليف : أثبت ذلك اجمالا وترك التفصيل لقيام الكفاية به

وحصول الزجر عنده

جاءت العقيدة الاسلامية في ذلك واضحة بينة ظاهرة يشترك في معرفتها عامتهم وخاصتهم بل مجاوروهم ومخالطوهم من أهل الاديان الأخرى ولم يخلص أهل سائر الاديان من ارتباكات وتلبيسات يقع فيها الخاصة فضلا عن العامة لأن التعاليم التي انتهت اليهم لم تكن من الجلاء والوضوح بحيث تبدو للناظر لأول وهلة أو بعد قليل تأمل بل كانت في غاية الغموض والخفاء

أما الافعال البشرية المتعلقة بالنشأة الآخرة بتة كالصلاة والصيام والحج واشباهها من التكاليف الشرعية ففيها من المحاسن مالا يطيق القلم احصاءه وأهم ذلك أن لا يرفع الانسان كاتي رجليه من عتبة الالوهية وينسى سعادته الحقيقية فيعيش ذئبا ضاريا يودى بنفسه وبابناء جنسه

على ان أهل العلم اليوم حتى غير المسلمين يذكرون لهذه التكاليف الشرعية البحتة التي لا يدرك العقل لها فائدة بعد أن يعلم ان الباري لا يناله خير منها من الفوائد والمرافق الدنيوية مالو كان السبب الوحيد في التكليف بها والغرض المقصود منها لقامت به الكفاية وصح به التكليف

وبقدر كثرة التكاليف الملائمة للفطر تهذب النفوس وترتاض ويشتد ميلها الى الخير وينتزع منها الفضلات الرديئة ويقرب النوع البشري من السعادة الدنيوية المطلوبة له

فأما ما يتعلق منه بانتظام الامور المدنية وصلاح حالة المعاش فالدين الاسلامي في ذلك البحر الذي لا يدرك غوره والغاية التي ليس بعدها أمل لآمل ولا زيادة لمستزيد

خدم الاسلام البشر خدمة لم يخدمه بها دين من الاديان السالفة ولا

اهتدت لمثلها عقول أهل القوانين والمعنيين بترتيب نظامات البشر وتنسيق أمور المعاش وتحسين حالة المجتمع البشرى

أمر بالاحسان فى معاملة الخارجين عنه وهم أول من تسبق النفس الى الوهم بان اساءة معاملتهم ربما كانت من القربات الدينية فقال ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ﴾ وأمر بأن يسوى بين المسلم وغيره فى الحقوق والمعاملات الدنيوية التى لا مساس لها بالدين وبيَّن ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة حتى تطمئن نفوس غير المسلمين لاحكام الاسلام ولا يجدوا فيها ثقلا على نفوسهم ولينالوا من المرافق الحيوية التى خلقها الله مشتركة بين خلقه بقدر حظهم منها وأمر بتركهم وما يدينون ولم يجبرهم علي الدخول فيه لتكون محاسنه وتعاليمه الواضحة داعية اليه وتفاديا مما وقع لاهل الاديان الأخرى من اشهار السيف على النفس لتعترف أو تنكر والوجدان لا يتسلط عليه حكم حاكم مهما كان جباراً قوى السلطان

ولم يكن الجهاد المفروض فى صدر الاسلام لاكراه النفوس على الاعتراف به بقوة السيف وانما كان الغرض الذب عنه وفتح الطريق أمام القائمين بنشره وتبليغه ليتسنى لهم ايصال تعاليمه الى آذان العالم الذين كانوا ينتظرون ظهوره منهم

أمر بالاحسان في معاملة الجار والزوجة والصاحب والوالدين والابناء وكل قريب وبعيد ممن يدين به ومن لا يدين وحث على كل ذلك بابلغ العبارات واقربها الي الافهام وتوعد على الخروج عن هذه الجادة بالعقابات الأخروية وسنّ لذلك من العقوبات الدنيوية ما لا بد منه لسعادة البشر

وكانت أحكامه وتعاليمه فى كل ذلك وسطا بين جانبي الافراط والتفريط

فأمر الانسان بالصفح عمن اساء اليه وأمره بمقابلته بمثل ما وقع منه اذا كان المتعدى ممن لا ينفعه الصفح ولا يزجره الاغضاء عنه لئلا تستطيل أيدى أهل العبث والفساد علي أهل التقوى والصلاح وأوجب طاعة أولى الأمر وحتم الخروج عليهم اذا اشتطوا علي الرعية وحكموا أهواءهم واغراضهم وجعل لكل حسن حداً اذا تجاوزه صار الى القبح ولكل شيء غاية يفسد بتجاوزها وجعل لكل شي ء طرفين ووسطا وأمر باتباع الوسط وترك الاطراف إذ لا تخلو عن افراط أو تفريط وأشار الى ذلك كله وحث عليه بقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى وسطا فى الاعتقاد والاعمال لا في النشىء والظهور "

هذه أمهات التعاليم الاسلامية وهي حقيقة الدين الاسلامى الحنيف وهى النور الذى سطع على العالم وهو يتخبط فى ظلمات الجهل فاشرقت له ارجاؤه وهى دين الفطرة التى لا تقبل الفطر غيره ولا تعدل عنه اذا خلت عما يكدرها من العقائد وهى هى السعادة الحقيقية فى المبدأ والمعاد

ليس أخذ هذه التعاليم اللطيفة من القرآن المجيد بالأمر المشكل ولا فهمها بالعقدة المشكلة وانما يمكن أخذ هذه المجموعة التوحيدية الدينية الاخلاقية العمرانية من الكتاب المقدس فى سويعات قليلة بأدنى تأمل والتفات

يندهش القارئ اذا قرأ ما تقدم وقارن بينه وبين ما يجده الآن من أهل الاسلام وما يراه منسوبا الى الدين مما يختلف كثيراً عن التعاليم الاسلامية التى سبق شرحها ولم يكن يعلم حقيقة الديانة الاسلامية وكنه تعاليمها الحقية وهو استدراك حسن يجب الاعتناء به ولا يجمل بنا اهماله وعنه نشأ سوء ظن استحكم للمشرفين على الاديان من غير المسلمين بل قد فشى هذا الظن

السيء بين أهل الاسلام ممن لم ينظروا فى كتب أصول الديانة الاسلامية ولا سمعوها من أحد وانما أخذوها من مجموعة أعمال المنتمين الي الاسلام والمتدينين به وان كانوا فى الحقيقة غرباء عنه "

انتشر الطعن في الدين الاسلامى في العصور المتأخرة وكثر الزارون عليه ممن ينتمى اليه ومن لا ينتمى وليس ذلك عن تعصب لدين آخر أو مروق منه ولا عن حقد على أهله ومَن تمسك به وانما ذلك فى الاغلب للغلط فى الفهم وظنهم ان الدين هو ماعليه المنتمون اليه والمنتسبون له والدين شيء واعمال أهله شيء آخر ليس فى حسن أحدهما دلالة على حسن الآخر ولا في قبحه دلالة على قبحه

الدين الاسلامى على مثل ما سمعت واحسن الا انه لم يمن دين من الاديان بما منى به الدين الاسلامى الحنيف من الاعداء الا لداء الذين يعملون دائبين لتشويه وجه محاسنه وتنفير الطباع عنه

ظهر الدين الاسلامى فى الجزيرة العربية فداس الوثنية باقدامه ثم انتحى الى اليهودية فاخنى عليها ولم يدع لها فى جزيرة العرب أثراً بعد منعة لهم قوية وشوكة لا تحطم ثم زحف بجيوشه الى مصر والشام والعراق والاندلس وغيرها من الممالك الشاسعة المتنائية الاطراف فقض فيها صروح النصرانية والمجوسية ورفع صروح التوحيد وشيد قواعد الاسلام

كان هذا كله فى نحو نصف قرن فلو انه سيل جارف انحط من حادر لم يبلغ هذا المدى فى هذه المدة القصيرة على أن فتوحاته اللطيفة كانت فتوحات شفقة وحنان لا يشوبها شيء من جبروت الاستعمارات التى نشاهدها اليوم من الامم المتمدنة

لم يرق هذا فى أعين تلك الامم التى زاحمها الاسلام وأخذ مكانها ولم تر فى نفسها قدرة على صد تياره الجارف ورأت فى سهولة تعاليمه وموافقتها لطبائع البشر ما يدعو الناس لترك ماهم عليه من الديانات والتمسك به فلم تر فى مقابلته خيراً من الكيد له ونصب الحبائل في طريقه

دخل جماعة لا يستهان بهم فى الدين الاسلامى لا رغبة فيه بل كيداً له وحقداً عليه ففرقوا بين أهليه وأوقعوا بينهم العصبية وقطعوا بينهم حبال الأخوة حتى كان من الحوادث الفظيعة في صدر الاسلام ما لولاه لعم الدين وجه المسكونة وذهب كل شيء سواه

ثم قام آخرون فادخلوا فى الدين من العقائد الفاسدة والأهواء الباطلة ما تأباه سماحة الدين الاسلامى ووضعوا لذلك الاحاديث الباطلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم والدين لم يدون بعد ولا جمع شتاته وانما هو فى صدور الرجال ممن لقى صاحب الشريعة أو لقى من لاقاه فاختلفت العقيدة وتشعبت المسالك على الناس واستحكمت العصبية بينهم فقاتل بعضهم بعضاً كل يرى أن ذلك جهاد لا علاء كلمة الحق والدين

كان هذا فى العصرين الاول والثانى للاسلام ثم كان من الفتن باستحكام ذلك الغراس الخبيث وتفرع غصونه ما كاد يقضي على الاسلام والمسلمين لولا بقية فيهم بذلت أموالها وارواحها فى حفظ كيانه من الدثور

ظهر الاسلام بعد تلك الفتن الجارفة والخطوب الجائحة كأنه هلال يلوح من وراء غيوم سوداء متقطعة أمامه تلك الصروح الهائلة خامدة هامدة كأنها بعض تلك المبانى التى مضى عليها ألوف الاعوام وأعجب شيء يشاهد في هذه السلسلة التاريخية أن تكون نيران هذه الفتن أسرع الي موجديها

منها الي المقصودين بها

أخذ الاسلام شكلا غير شكله الاول فسارت الحكومات الاسلامية في خطتها سير رأى وهوى تاركة وراءها القوانين التي دونتها الشريعة الاسلامية علي مافيها من بساطة واعتدال وهجرت العلوم الاقتصادية لتسلط الحكام وعدم وقوفهم فى امتهان الامة والتطاول على حقوقها عند حد واضيعت مبادى تلك العلوم بعد أن قربت ثمرتها من أيدى متعاطيها واقتصر في العلوم على العلوم الشرعية وعلى ما يُظن ان له بها مساسا وارتباطا

جاء هذا الدور من أدوار العلم والناس بعيدو عهد باصول الدين والسليقة العربية وهى اكبر معين على فهم معانى القرآن والسنة بلا مشقة ولا عناء فاسدة والاقوال فى كل فن من فنون العلوم متضاربة متناقضة والتمييز بين غثها وثمينها مشكل فلم تسم همتهم الى الرجوع الى سنة الاسلاف وطريقة صاحب الأمر والاهتداء بهديهم حصراً لدائرة الاختلاف فى أضيق الدوائر وتقليلا للاشكال على الناس قدر الامكان وانما رجعوا الى ماوقع اليهم من مقالات من سبقهم فأخذوها وتشبثوا بها وعكفوا على تعلمها وتعليمها بلا نظر فى دليلها ولا نظر فى وجوه استنباطها بل بمجرد حسن الظن بقائلها وربما كانت المقالة فاسدة وكانت غير مزعومة على قائلها مفتراة عليه أو ربما كانت له مقالة ثانية رجع عن مقالته الاولى اليها

ومن ذلك الوقت أخذ المسلمون فى الجمود من جهة والاستكانة والرضوخ من جهة أخرى وأخذت هذه المبادى تتأصل في طبائعهم حتى صارت احدى الغرائز فصارت طاعة المتسلط فريضة مهما كان أثرها سيئا على الدين والدنيا وتقلص ظل السنن والشعائر الدينية وحلت محلها البدع المنكرات وأصبح

إنكار هذه البدع والحط منها ازراء على الدين وانتقاص للشريعة يوجبان أشد العقاب

جردت الكتب المؤلفة فى الدين من أصول الدين وسننه ومحاسنه وآدابه وقوانينه الأخروية والاجتماعيـة وحشيت من الخرافات والاكاذيب والاحاديث الموضوعة المفتراة على صاحب الشريعة وقصر حملة العلم نظرهم عليها كأنها أم الدين بل شدد فى أمرها قوم منهم فقالوا انها الدين وان خالفت أصول الدين كتابا وسنة بلا بحث فيها ولا ترو فى شأنها

نشأ عن هذه الاعراض التى ذكرناها و بينا كيفية تسلطها أمراض قتالة (١) احتجاب نور الشريعة عن انظار العالم الاسلامى وراء ستر تقليد من لا علاقة له بالدين (٢) شيوع البدع والاحداث ونزولها منزلة أمهات المسائل الدينية (٣) استكانة النفوس لهذه البدع والركوع أمامها من العلماء جهلا ومن العامة تقليداً لهم (٤) قعود أهل الايمان والنظر الصحيح عن بيان حقيقة الدين خوفا من علماء السوء أن يثيروا العـامة عليهم كما اتفق ذلك لكثير ممن تقدمنا من أهل العلم الصحيح ومن رأيناه فى عصرنا : ولقد رأينا رجلا أنكر بدعة ربما كانت مكفرة فافتى نحو ثلاثمائة ممن ينتمون الى العلم للتزيي بزى أهله بكفره ومروقه من الدين فلحقه لذلك ما فيه كفاية لردع أقوى رجل متجرد لخدمة الدين والجهاد فى اعلاء كلمته والذب عنه (٥) وقوع المسلمين فى الحيرة اذا توجه عليهم اعتراض فى أمر وقامت عليهم حجة العقل في قبحه ظنا منهم أن ماهم عليـه هو الدين ولو علموا ماهو الدين لأيقنوا أن الاعتراض متوجه عليهم لا على الدين وحاشا الدين الحنيف السهل أن يتوجه عليه اعتراض

هذه الامراض التى لحقت جسم الدين الاسلامي الحنيف كافية لأن

تفقده حياته الادبية ولولا ان أصول الدين محفوظة من التغيير والتبديل لم تصل الهايد عابث لم يصل الينا شيء من حقائق الدين ولاندثر كما اندثر غيره من الاديان التي نالت أيدي المتلاعبين بها أصولها

أخذت الحكومات الاسلامية من أعوام قليلة شكلا غير شكلها الاول انتقل اليها من بلاد الفرنجة لمجاورتهم لنا ومخالطتهم ايانا في ديارنا فاباحت التفكر وأعطت حرية القول فانطلقت الالسنة التي كان يعقلها الظلم لا الجهل وظهر من كان يستره الخوف لا الخمول فتقلص من ظل البدع وظهر من شعائر الدين في نحو ربع قرن ما يبشر بحسن المآل اذا استمر الحال على مثل ما نشاهد اليوم

الآن محاربة هذه البدع والاحداث وعلاج هذه الادواء الفتاكة يجب أن تكون من جهة النابتة الجديدة والناشئة الحديثة لا من جهة الشيوخ علماء أو عامة فان هذا الصنف من الناس قد استحكمت فيهم الامراض فليس الى شفائهم منها من سبيل

ان الخاصة يمنعهم من الرجوع الى الحق أنفتهم واستكبارهم أن يكونوا تبعا لغيرهم ممن يظلهم واياه عصر واحد وخوفهم علي مراكزهم في قلوب العامة ان يعلموا انهم نشؤا على غير هدىً في دينهم وهكذا شأن رؤساء الديانات وزعماء المشركين في مخالفتهم النبي صلى الله عليه وسلم . والعامة يمنعهم من الرجوع جزمهم بان الحق مع مقلديهم وان ما يقوله غيرهم بدعة محدثة وقد قيل لعمرو بن العاص ما أخرك عن الدخول في الاسلام مع تقدمك في العقل فقال جاءت النبوة والزعامة بيد غيرنا ونحن اتباع ننتهي حيث ينتهون فلما ماتوا وافضي الأمر الينا نظرنا فاذا ما يدعو اليه حق فاتبعناه : فاما النابتة الحديثة

فلم تعرف قلوبهم هذه المفاسد ولا وضعوا زمام أمرهم فى يد أحد فيقودهم حيث شاء فهم أحرار فهؤلاء اذا ظهر لهم الحق لم يلبثوا أن يطيروا اليه

ان الدين ليبلغ بالتسلط على صاحبه ما لا يبلغه متسلط آخر مهما كان قوى السلطان وفى هذا المعنى جاء الحديث - ان الله ليزع بالقرآن ما لا يزع بالسلطان - والدين الاسلامى كافل بالسعادتين الدنيوية والأخروية على وجه لا يتطرق اليه خلل أو نقصان فالذى يريد أن يخدم الامة الاسلامية في مبدئها أو معادها خدمة حسنة موصلة الي السعادة الحقيقية فاقرب الطرق ان يزيل الستار عن محاسن الديانة فاذا خالطت بشاشتها القلوب وحلت الحقائق محل الخرافات وقامت المحاسن مقام المساوى سار المسلمون فى طريق السعادة فلم يلبثوا أن يحلوا ربوعها وفى هذا أكبر خدمة لنوع البشر وسعادته

ولذلك نرى ان نشر المقالات العلمية فى بيان محاسن الاسلام ومحاربة البدع والاحداث ودفع ما يتوجه عليه من الانتقادات والاعتراضات وتقرير حقائقه من أحسن ما يخدم به علماء الاسلام الديانة الاسلامية لرفع منارها بين سائر الديانات

انما الواجب فى ذلك ان يكون القائمون باعباء هذه المهمة والناهضون بهذه الوظيفة من خاصة الخاصة ممن وقفوا تمام الوقوف على أصول الدين وعرفوا سنة صاحب الشريعة وسنن أصحابه من بعده وأسرار التشريع لئلا يخرجوا بالناس من حفرة الى ما هو شر منها وانكى: وأقل ما فى ذلك أن لا يتكلم أحد باستحسان شئ أو استنكاره فى نظر الشرع الا بعد التثبت عنه واجادة التأمل فيه ليكون على بينة من أمره

والله الله فى طلب الظهور من جهة الدين أو طلب الدنيا من قبله فانما ضاع

الدين من طلب الظهور منه أو جعله وسيلة للدنيا فان الدين لله وللبشر كافة
فلا ينبغي أن يتقدم لخدمته إلا من كان يرى في خلوص نيته وصفاء سريرته
وحسن طويته وتجرده عن الاميال والاهواء والاغراض مايمكنه ان يقدم
خدمة ترضي جناب الحق جل جلاله وترضى البشر كافة والله الهادي الى
سواء السبيل هو حسبنا ونعم الوكيل ؟

محمد بدر الدين النعساني

ا

﴿ فهرس المجموعة ﴾

صحيفة

صحيفة

﴿ تم الفهرست ﴾

المقالة الاولى

« لجناب الموسيو جابرييل هانوتو »

قد اصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية .

اخترق المسلمون ابناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على اوربا ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع اصلها الى آسيا بل اقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا واكرهوا على الرجوع الى افريقية حيث ثبتت فيها اقدامهم احقاباً متعاقبة . ولكن كان لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن اخرى ببلدة (فاس) فى الغرب الاقصى معانقاً بذلك الغرب كله .

فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنساوية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذى ينتمي الى (اسپانيا) بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس وتلاه (لويس الرابع عشر) فى تهديده

بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر (نابوليون الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسويون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التى كانت لا تنثنى عن متابعة الغارات ضد القارة الاوربية فاصبحت الجزائر فى ايديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسى منذ ٢٠ عاماً .

قد وصلت طلائع قواتنا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً فى الفيافى وبطن الحبوت وظنهم انهم صاروا فى امنع موئل شعروا بانفسهم وقد حلق عليهم الاوربيون من جميع الجهات . وكانت القبائل الواردة اليهم من السنغال اخبرتهم بان الاوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى باقل وباماكو وسيجو سيكورو وتوغلوا فى جهات اخرى حتى وصلوا الى النيجر وبحيرة شاد وان مدينة تمبكتو المقدسة قد سقطت فى ايديهم منذ اعوام . واكد لهم هذه الاخبار ايضاً رسلهم الذين يخترقون افريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من ان جهات صانغا وتجاوندره قد وطأتها اقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شؤنها وان وابوراتهم (فى الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية او البحرية بالبابورات بدلاً عن البواخر) تشق عباب نهرى الكونغو والشارى وتنعكس على سطحهما صورة الدخان الاسود المسترسل خلفهما . عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا

امام دورهم واضعين رؤسهم بين افخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الى الله ويكررون قولهم عن فرنسا يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان خلعه فلا يزال له السمو عليه .ويختمون كلامهم بقولهم «قد كان هذا قدراً مقدوراً . »

اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت اراضيه واخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين . وهي تدير اليوم شؤنه وتجبى ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التى انشأتها فى باطن القارة الافريقية هى الوارثة لما ابقته الدول السالفة والامم البائدة من قرطاجيين ورومانيين وعرب من آثار المدنية التى كانت القارة الافريقية منبتاً لثمارها اليانعة .

ان شعباً جمهوري المبادئ يبلغ عدد نفوسه اربعين مليوناً لا مرشد له الا نفسه . لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث ان ينمو حتى يساويه فى العدد وهو ذلك الشعب المنتشر فى الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها وهو الشعب الاسلامي السامي" الاصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب ان يحاول جهده

لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا ايضاً قريب منا فى مراكش تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد فى الغموض والاشتباه . قريب منا فى طرابلس الغرب التى تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية بباطن القارة الافريقية . قريب منا فى مصر حيث تصادمت الدولة البريطانية مصادمتها اياها فى الاقطار الهندية . وهو موجود وشائع فى آسيا حيث لا يزال قائماً فى بيت المقدس وناشراً اعلامه على مهد الانسانية ويحسب انصاره واشياعه فى قارات الارض القديمة بالملايين . وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد الصين فانتشر فيه انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض الى القول بان العشرين مليوناً مسلماً الموجودين فى الصين لا يلبثون ان يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى) . وليس هذا بالامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق . فهو الدين الوحيد الذى امكن اعتناق الناس له زمراً وافواجاً . وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه . ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد افرغوا على ابدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية اجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك فى هذه الدنيا كما ان امثالهم فى القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامي . ثم هو — اى هذا الدين — قائم الدعائم ثابت الاركان فى اوربا

عينها أعنى فى الاستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية عن بعضها شطرين .

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الأرائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص الف ليلة وليلة لا يتحركون من مقاعدهم . ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجئ دورهم فى المقابلات لعرض طلب او توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم فى (الاستانة) او فى (مراكش) فى ارجاء آسيا او اصقاع افريقية من بدو كانوا او حضر واقفين فى اماكنهم او سارين مع القوافل يركعون مع الراكعين اذا أزفت الصلاة يتوضأون او يتيممون بالتراب مولين وجوههم جميعاً شطر الكعبة وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة او يتزيون بالسترة الاسلامبولية والذين يلبسون الطربوش او العمائم على رؤسهم والذين يضعون السيف واليطقان فى نطاقهم او يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة او يدرسون علوم السياسة فى پاريس فانهم يممون وجوههم شطر مكان واحد هى الارض المقدسة ، هى الارض التى تكتنفها الصحراء ، هي الارض التى عاش فيها محمد ، هى الارض التى تتضمن جسمه المبارك فى قبر لا يجسر احد للوصول اليه الا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هى الارض التى جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة هى الحج الابدى الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن

بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه اعناقهم ولا يجدون لذة فى الحياة الا بأمل العودة اليه . ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج فقد مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة بها يدبرون اعمالهم ويوجهون افكارهم الى الوجهة التى يبتغونها وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به اشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه . بل هي القطب الذى تنتهى اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة ، من البيت الحرام ، من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس ، من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة ، من الركن الذى يقولون عنه انه سرة العالم وحققوا بانفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « بسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران اجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد « الله اكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين « الله اكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

ولا تظنوا ان هذا الاسلام الخارجي الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به . لانه وان كانت البلاد التي تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة « بدار اسلام » وانما هى « دار حرب »

فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها .

ترى فى قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون متدثراً بارديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلويه من ذلك شيء . هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية راوياً حوادث الاقطاب والاولياء من مشايخ الاسلام انما يبذر فى القلوب حيثما حل واينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا . ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا . وغاية الامر ان العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم اهلوها بالترحاب ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم حتى ان الفقير منهم لا يرى فى اكرامه له اقل من أن ينحر له شاة . هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان او من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه اهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام : وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لان مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من اهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد اعضاؤه الى السكون
وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا فى الجزائر وتونس على احسن
مايرام . وما ذلك الا لان الرابطة التى تربطهم ببعضهم قد اعتراها الوهن ،
ولان الفوضى التى اصابت الاسلام الافريقي قد اخذت نصيبها منهم .
ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيماً لانها
مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . فقد
أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة من الاصقاع التى تلى أملاكنا
فى الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب
الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل البرجيس
آمون وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد فى رعاية
القواعدالدينية . ولقدلبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقةما مع الدولةالعلية
أخيراً بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية ، ولكن يظهر ان
اخلاقهم الشديدة قدتلطفت فتقربوا من الدولة العلية . غير ان هذالم يمنعهم
من طرح حبائل الدسائس التى اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد
لصالحها فى أفريقية الجنوبية . ولم يكن الامر قاصراً على وسط القارة
الافريقية فانه توجد بالاستانة نفسها والشام وبلاد العرب ومراكش
عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب
ويخشى انها تفترس بنا اذا اغمضنا الطرف .

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينصاعون
لاوامر سرية تناقلوها بالافواه وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر

والافواج منهم لمهاجرة اوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجوّ .

يؤخذ مما تقدم ان جراثيم الخطر لاتزال موجودة فى ثنيات الفتوح وطيّ افكار المقهورين الذين اتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة . ففي مسئلة علائقنا مع الاسلام تجد المسئلة الاسلامية والمسئلة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط ببعضها . وهذا ما يجعل حلها صعباً ومتعذراً كما سنبينه :

المقالة الثانية

المسائل الاساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها مع انها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية . او هو بعبارة اخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته

المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعداداً للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ؟ او هل للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها. واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسوّاه ارادة مطلقة من نفسه وتصرّف مطلق فى ذاته ؟ ام ترجع جميع اعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل مع ان البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالامر الحديث اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلاًّ وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين .

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة . فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية فى العظمة والعلو وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ويذهب الثاني الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهيــة بما فطر عليــه من ايمان وارادة وبما أتاه من أعمال طيبات وحسنات .

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هي تحريض الانسان على اغفال شؤن نفسه وبث القنوط فى فؤاده وتثبيط همته وايهان عزيمته بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل

وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى . ومن الامثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد اذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية ، وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه ان يصير فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته .

وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية والثانية بشرية تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين وانما بتلطيف فى التناقض . اما الاولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة لآثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وان كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته . ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية فى حين ان الديانة الثانية وهى الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى اسفل الدرك وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له .

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً فى الاعتقاد الاساسى لكلتى الديانتين وهو أصل الالوهية . أما المسيحي فيذهب فى هذا الاصل الى الثالوث أى أن الاله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس . وعليه فيكون يسوع المسيح الهاً وبشراً — هذا الثالوث السرى المشتقة اصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب

ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكاً شديداً حيث يقول « لااله الا الله . »

غير أن ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو اخف وأحلى وأجلب للثقة اذ هو يحملهم على اتيان الاعمال التى تقربهم من الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين ان المسلمين تجعلهم دياناتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لايتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال : ولفظة الاسلام انما تعنى « الاستسلام المطلق لارادة الله . »

نرى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى وتتصل الاثنتان ببعضهما من حيث المنشأ العام لهما اذ هما مشتقتان من الاصول اليونانية والسامية ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب . فهما اذاً متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية .

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامي فرأى فى الاسلام العدو الالد والخصم الاشد . قال المسيو كيمون فى كتابه (پاتولوچيا الاسلام) ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً ، بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا

ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد في مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستريا (الصرع) العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله الى ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقي والجنون الروحانى والليمانيا او الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من افكار القسوة والفجور فى اللذات الخ الخ .

امثال هذا الكاتب يعتقدون ان المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خمسهم (كما يقول ايضاً) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا ايضاً قوله) . . . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى . . أليس كذلك ؟ . . . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً وان من الجائز ان يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن انفسهم والذود عن بيضة دينهم .

ويذهب غير اصحاب هذا الرأى الى ان الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب . وتطرف البعض منهم فاعتبر الاسلام ارقى مبدأ واسمى كعباً من الدين المسيحي . قال المسيو لوازون(القس ياسنت سابقاً) معترفاً ومقراً بان الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوّراً ونصح للفرنسويين الذين يتلمسون دينهم المفقود ان يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة . ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين فى ذلك

على ما دوّنه احد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كردينالاً حيث قال : ان الاسلام قنطرة للامم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية . فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح بل لا بد من رعايته وتعضيده بان نسعى فى توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس وجعله رائداً لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد .

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة . ولكنهما وان افترقا متصلان ببعضهما وموجودان فى حيز واحد. وقد لوحظ كثيراً ان كل فرد من افراد موظفينا او وكلائنا او ابنائنا المستعمرين قد تخير بين المبدأين وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقاً لامياله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ولا وسط بينهما .

وتلك الاميال المتعاكسة التى برزت من مكامن الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ هى التي احدثت التناقض فى اعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية وأدت الى الشكوك والريب ونقض ما تقرر وتقرير ما نقض الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما فى البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ويتضاعف خطره كل يوم اذا فكر الانسان فى انه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم الاربعة او الخمسة ملايين فقط . بل يسرى على نصف قارة باكملها عديدة السكان وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد

رواق الأمان على الاهالى وابطال التجارة فى الرقيق .

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً ولا بد من الاعتماد على امر واحد فى حلها اذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات . ولذلك خيرت ان أعرضها على محك الرأى العام مبيناً احكم الوسائل واكثرها انطباقاً على العقل والصواب للوصول الى نتيجة فعلية وموردا شيئاً واحداً هو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة واشدها ارتباطاً به :

قد سبق لى وقتما تم تشكيل ممالكتنا الافريقية تشكيلاً تاماً ان سألت ولا زلت أكرر هذا السؤال من الحكومة ان تبحث بحثاً علنياً فى علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة اناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على العموم اتباعها من حاكم منا ومحكوم .

ان الراغب فى الاستعمار من ابناء بلادنا يصل الى الجزائر او تونس او السنغال فيجد نفسه فى اتصال مع العربى او بعبارة اعمّ مع المسلم اذ منه يشترى الارض التى يريد استنباتها ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شؤنه المعيشية . فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهلان بعضهما وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه اكثر خطراً اذا كانت العلاقة بين الاهالى وبين الموظف او الحاكم او القاضى او الضابط او غيرهم ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم والقيام على شؤنهم وتنفيذ قوانيننا بينهم . وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا او رجال حكومتنا المركزية التى يديرها احد عشر وزيراً ربما

لا يوجد من بينهم سوى واحد او اثنين أمعنا النظر فى خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التى عهد بهم امر ادارتها وتنظيمها.

مع ان الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواهننا ونلنا هذه السلطة ان نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وان نسأل الخبيرين والعارفين ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادئ علاقاتنا مع العالم الاسلامى .

ان فريقاً كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط واساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون فى اتصال بالمسلم وجعلوا أحوال معيشته وطرق اعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من يقين اخبارهم . فهم اذا سئلوا أجابوا واذا أجابوا أفاضوا وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الامر الذى نحن بصدده وهو من اكثرها غموضاً والتباساً . فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى تفيض علينا أنوار الحقيقة ونطرح من هذه الانوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الالسنة وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين وتنشر بين الطلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة وتزول العقبات القائمة وتقال الاقدام من العثرات وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها العموم فيعم نفعه وتجتنى ثماره وربما

كان سبباً فى ان نعيش مدة نصف جيل على اساس اختبار الفرنساويين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها اوزلة سقطوا فيها وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم ؟

ولست اظن ان احداً يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات إخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من اقوم طرقها : أشرت سابقاً الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامي . والمسلمون فى الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام غير ان ادراكهم مبهم من حيث الجامعة السياسية وماكان يسميه القدماء بالرابطة المدنية او الوطنية اذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام . وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز ان يتولاها الا من كان من عقيدتهم ولم تدخل فى رؤسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من افئدتهم واخذت من قلوبهم أمتن مأخذ فكان ذلك سبباً فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية .

على انه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء . نريد بهذا البلد القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز الباي . وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة

ما ادخلناه من التعـديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً واجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التداخل فى شؤن البـلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من اهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم تخدش له حساساتهم اذ لبثت المساجد مغلقة فى اوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها وتركت ازمة الاحكام بأيدى القواد والقضاة ولم يغير شىء من القوانين الاهلية الا برضى وتصديق من الاهالى وربما كان بطلب منهم . وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين اكثرهم من التونسيين . وجملة القول ان انقلاباً عظيماً حصل بدون أن يجرّ وراءه ألماً او توجعاً او شكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير ان يلحق بالدين مساس وتشربت الافكار الاوربية بين السكان بدون ان يتألم منها الايمان المحمدى واقترنت السلطة الفرنسوية بالسلطة الوطنيه اقتراناً لم تغشه سحابة كدر .

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلاميـة الاخرى الشديدة الاتصال ببعضها . اذاً توجد ارض تتفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضى الاسيوى . ارض نشأت فيها نشأة جديدة انبثت فى قضائها وادارتها وعاداتها واخـلاقها . ارض يصح ان تتخذ مثالاً يقاس عليه ونموذجاً ينسج على منواله : ألا وهى البلاد التونسية .

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجنة

ورومية وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فاصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام . ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الاراضي الخصبة والسماء الصافية الاديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها . ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب في الاقطار التونسية من المدنيات القديمة لم تندثر تماماً ولم يمح اثرها كى تهتز لاستقبالنا وتوصل ببعضها ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضى والزمن الغابر .

ان مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال (لافيجري) الكاتدرائية تجاه اكمة (بيرسا) التى عبدت فيها (تانيت) .

وخلاصة القول ان مزيجاً من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها . ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش فى خلال الجيل الذى نطرق الآن ابوابه للرتوع فى واسع رحابه . جابريل هانوتو

المقالة الاولى

« من ردّ الامام »

قال حفظه الله مخاطباً حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء :

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريدتكم نقلاً عن جريدة (الجورنال) الباريسية تتميماً لبحثه السابق .

بحثه السابق وشيء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شؤن دولته يريد أن يدعو قومه الى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم او يجاورونهم فى ممالكهم . وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الامر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين وبه يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنساوية . فان امكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل امر يصدر من آخر فرنساوى فى طبقته — صح للدولة الفرنساوية ان تمن على المسلمين بالبقاء

فى الارض والاَّ وجب عليها ان تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة او تجليهم الى قارة اخرى .

ولهذا جرَّه البحث الى النظر فى أصول دين المسلمين والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي بل بينه وبين اديان كثيرة اشار اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل احد الدينين على الآخر بآثار كل منهما فى أنفس معتقديه .

اما غايته من البحث وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنساويين لتثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو للامة الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة .

فذلك امر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ونستلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية و يتجملون بآداب الامة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسوية .

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى اصل من اصول الدين ماحركت قلمي لذكر اسمه وكان حظي من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار . حظ الناظر فى احوال الامم واعمال رجالها . حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم ولا يهمه أخطأ القائل او اصاب .

أما ما جاء به من التحكك باصول الدين فهو الذى اغمزه بما اكتب اليوم .

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لاول وهلة انه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها الى ذهنه ثم هو

سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم .

اكثر من ذكر التمدن الآرى" والتمدن السامي" والتفريق بينهما وأن أحدهما قهر الآخر وان التمدن الآري هو الذى ظفر بقرنه التمدن السامى وما يشبه ذلك .

ان مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى اغلب انحائه . ولكن اهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى اقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها ما دامت الارض ارضاً . ومن طبقاتهم من قضى عليه ديناً بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له ان يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم وهو الجمهور الاغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقة اخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم وانه لا يليق بالانسان ان يهتم بشؤن العيش فيه هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان ، ولم يخالط الا قلوب القليل منهم كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية ؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو ان التمدن الذى وصل اليه الاوربيون حمل الى اوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية ؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه

اوربا الآرية من الهمجية وان العلم والمدنية لم ينبعا من معينها وانما جاآها بمخالطة الامم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم اساتذة الاوربين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو .

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه اوروبا عند ما انتقص اطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء واشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعقل ؟ نعم هذا هو الذى كان معروفاً عند الغربيين وقت ما ظهر الاسلام .

ماذا حمل الاسلام الى اوربا وما هى المدنية التي زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين . زحف عليهم بعلوم اهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الادران والاوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء فى الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به ابلج ناصعاً يبهر به اعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون اين يذهبون .

انى أكيل لمسيو هانوتو اجمالاً باجمال والتفصيل لا يجهله قومه وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به .

ان اول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ما جاورها وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا

الى ذلك سبيلاً . واليوم يرعى اهل اوربا ما نبت فى ارضهم بعد ما سقيت بدماء اسلافهم المسفوكة بأيدى اهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارئ لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما اودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى اعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة الفرنساوية التى تنقاد بذكائها الى الاذكياء . والعارف بطباع الامم لا يعسر عليه ان يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها . وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم .

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان . ذلك مما سفكه اهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية ويخمدوا نارها .

ان صح الحكم على الاديان بما يشاهد فى احوال اهلها وقت الحكم جاز لنا ان نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة . فان الانجيل بين ايدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه . يأمر الانجيل اهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصاً ان يعطوه الرداء ايضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الايمن أن يديروا له خدهم الايسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الاب . ويقص عليهم ان دخول الجمل فى سم الخياط ايسر من دخول الغنى

ملكوت السموات وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام فى اهل ذلك العالم الباقى .

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل مالله لله وما لقيصر لقيصر كما اوصى الانجيل ؟ وهل رأى مثالاً لذلك فى المدنية الآرية التي تاخت مع الدين المسيحى ؟

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هي مدنية الملك والسلطان . مدنية الذهب والفضة . مدنية الفخفخة والبهرج . مدنية الختل والنفاق . وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرا عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شىء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الامريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لاول هبوطه على المنارة المشهورة وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة . فان كانت هذه هي المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة . ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين وما كان الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الامم يأخذ بعضها عن بعض فى المدنية لا فرق عندهم بين آرى وسامي متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة أو استكمال شأن من شؤنها .

وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل . فلم يبقَ من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به ما يقابله .

وانى اقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي ان دين التوحيد ليس ديناً سامياً بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وانصارُه الاولون . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الامم المذكورة فى الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم او أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبية والتجسيم على التوحيد وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها

سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى وسنأتى على الكلام فيها
وهى المقصد من مقالنا غداً ان شاء الله تعالى .

وقبل القاء القلم أذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما
يتفانى المسلم فى الله على رأيه انى ان صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية
فذلك لانه صغير فيها حقيقة وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولانه لا أمير
فى العلم الا العلم والسلام .

المقالة الثانية

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من امهات مسائل الدين : القدر .
والتوحيد أو التنزيه . وبعد ان خاط فى بيان وجه الاشكال فى المسئلة
الاولى واختلاف الناس فيها قديماً وانهم انقسموا الى فريقين قائل بأن
العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته فى فعله وذاهب الى ان خالقه وهبه
اختياراً يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب . قال ان الرأى الاول
يحط الانسان الى حضيض الضعف والثانى يرفعه الى ذروة القوة . ثم
وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود
الازلى . والثانى بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله
بالانسان فى اوصافه المادية . وان الاول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقديه

الى مراتب الكمالات الانسانية . وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .
ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين اي مذهبي الناس فى القدر وان الاولى ربانية ورثت ما ترك الآريون والثانية بشرية اخذت ما ترك الساميون . وان الاولى ترقى بالانسان الى المقام الالهي والاخرى تنزل به الى اسفل درك حيوانى . ويظهر ميل كل من الديانتين ظهوراً بيناً فى الاصل الذى بنى عليه كل منهما . فاصل الاولى هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان الهاً بشراً واتصال الالهين بروح القدس . واصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان . ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى اصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما اطال به على غير جدوى .

هل عهد بين الكتاب واهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ ادع الحكم فى ذلك لمن له ادنى المام بمذاهب الامم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين او منزهين . ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شىء من ذلك . بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخلاف فى المسئلة بين المسيحيين انفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام . واعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — او

الدومينيكيين وهم جبرية واشياع (لوايولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين اهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم بل لم تنبت اصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم .

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالاً على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين — وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا — انه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتماداً على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الاديرة وبين الرهبان وعرفنا اخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم اوربا فى زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار .

وقد اشتهر مذهب اهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف امره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة . ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلاسفة بابطاله وهو مذهب القائلين ان الاشياء توجد بالاتفاق او بالصدفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . اليس هذا ادخل فى باب الجبرية من اسناد كل امر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف — وهو الكتاب المنزل بالاسلام — يعيب على اهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم . » الخ الآية واثبت

الكسب والاختيار فى نحو اربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسئلة اختيار العبد فى افعاله وبين اثر القدرة الالهية فى اخلاق الامم او فى تمريز الغرائز مثلاً . فاختيار العبد فى افعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه . لكن ماعليه الامم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما .

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك فكان العامل الذي لا يكلّ والدائب الذي لا يملّ والساهر الذى لا ينام والجاد الذى لم يبلغ شأوه احد من الانام . هل نقول عنه انه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى اتمام دعوته قائلاً الذى كفل لى النصر يكفينى التعب وضمانة الله لاعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطاً ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزماً واحتياطاً .

جاء اصحابه على اثره وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الاولين وكانوا اكمل الناس ايماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته واعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار . وكانوا اسوة فى السعى ومثلاً فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم

هانوتو وامثاله .

هذه هى العقيدة السامية او الدعوة المحمدية او المدنية الاسلامية ارتقت باربابها وهم من اهل البداوة فى قاصية من الارض . لم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التاطف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية .

ولكن وا أسفاه ! نتأت رؤس بين المسلمين كأنها رؤس الشياطين واحتملت غثاء من قمش الآريين وقذفت به فى الارض الطاهرة فتدنس به اديمها وانتشر قذره وعظم ضرره .

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق واحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر وخدعوا المسلمين بهرج القول وزور الكلام حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً والله يقول لنبيه « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ويطردها العقل وينبذها الدين حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغاب على المسلمين

مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان واخذه عن المسلمين فى اخريات الايام اهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم .

ولكن لا انكر ان الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم اوهاماً لا نسبة بينها وبين اصول دينهم فلصقت باذهانهم لا على انها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يذلها بعوامل الدين الصحيح . فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل امة .

وهذا الضرب من المتصوفة ايضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الاولى .

ما أضل هانوتو وامثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء او البله الذين يغشون اطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من اقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام .

اما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم واستنبتوا ارضهم واستغزروا من الثروة واعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة واعتمدوا فى نجاح اعمالهم على معونة القدر وايقنوا فى صولتهم علماً ان ليس من الموت مفرّ ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوي من الضعيف والعزيز من الذليل . ولانقلب جنونهم لدى هانوتو عقلاً

وتحول هذيانهم حكمة وعلماً .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسئلة القدر عند المسلمين . اما التنزيه والتشبيه فانا نوفيه حقه فى تتمة لهذا المقال ونشفق على القارئ اليوم من الاملال ، والسلام .

المقالة الثالثة

اليوم آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى توثبه على الاسلام . وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الاول .

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً فى احوال الامم ونشأة العقائد وَعَقَلَهُ يعلم ان الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على ابواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها . وكانت ولا تزال دليلاً على انحطاط عقول اهلها مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط تبتدئ من وثني افريقيا وتنتهى الى بوذى الصين وبرهمن الهند .

كلما ارتقى الانسان فى العلم ولطف وجدانه بالفهم ونفذ عقله فى اسرار

الكون تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الأعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء حتى ينتهي الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه ان يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وامثاله لان ما لا حد له محال ان تحيط وجوده الحدود .

وقد كان هذا شأنَ اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم . نشأوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وتدق وترثُّ بارتقائهم فى العلوم . وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة .

وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وافلاطون وارسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع فى محو ما غَشِىَ نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى . ومن قرأ جمهورية افلاطون التى نقلت الى العربية ايام المأمون تحت اسم المدنية الفاضلة علم كيف كان يقارع افلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الامة اليونانية وما يبتغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف ان تكون عليها .

وبعد ان اوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتدَّ بهم التنزيه الى الجهل . بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قروناً متعددة وكانت اشدّ صفاء وأبهر سطوعاً .

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير ان رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات

الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط . وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد باهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره فيرونه عظيمه وحقيره سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة . الفاضل والمفضول والفروع والاصول وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة وتمت بها النعمة .

فأيُّ مقام اعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ما فُصّلَ منه فى فهمه وما اجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشىء من هذا جميعه على نفسه لا فى الايجاد ولا فى الامداد . بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهي ان يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شؤنه .

ينقسم اهل التشبيه الى قسمين : احدهما من يعتقد الالوهية فى بعض الموجودات المشهودة ويقف عند ما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن بارئ الكون يظهر فى بعضها .

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى او سلطة حيوان من

الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم وانهم اليه يرجعون فى جميع امورهم . فهؤلاء يسلطون على انفسهم ماشاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ولا يزالون حيارى فى شؤن حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم . ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لانها ليست بأبعد منهم فى النوع او الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم . يسارعون في ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم اهواؤهم .

ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل فى محاربها وتقدم الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية . وأىّ درك ينحط اليه الانسان انزل من هذا وأمر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة ؟

اما الآخرون فهم ارقى درجة من أولئك فى الادراك . ولكن ماذا اصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان فى عقل او شجاعة او صدر منه ما لا يألفون من الاعمال اوظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهراً للوجود الالهي فدانوا لسلطانه واستكانوا لقهره واخذوا انفسهم بالخضوع لاراداته فسلبهم كل ما كانوا يملكون من عقل وارادة وعزم وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثير من اهل الدهاء ان ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعاً فى استعبادهم . وكم قاست الامم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة !

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين

وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء واهل السمو منهم فظنوا انه فى ملكوته كملك فى جبروته يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ويستصنع عمالاً للتصرف فى شؤن عباده فاذا امتاز احدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله او صدر منه ما يظنونه دليلاً على انه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون فاتخذوه شفيعاً لديه يلجأون اليه فى مهمات اعمالهم ويستمدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون قالوا : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

ماذا اصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم فى جميع شؤنهم فكانت علومهم من اوهامهم وافهامهم واقفة عند خيالاتهم . ينكرون الاوليات من المعلومات اذا توهموا انها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها عن زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالاً على ما يستمدونه منهم . ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد والعيان يؤيده فى كثير من الامم فى الشرق والغرب الى اليوم .

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة — بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشأوا فى جوها الفاسد .

اما زعم هانوتو ان وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد فى سلم الفضائل طمعاً فى نيل مرتبة الالوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين

سواه فيما اعلم . ولم يقل احد من اليونانيين انفسهم انهم كانوا يسعون فى كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ولا ان الالوهية البشرية تركت فيهم اثراً صالحاً ، بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وافلاطون لمحاربتها . اما السعي الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم .

اما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين انفسهم . ولكنى اقول ان المسيحية بذلت وسعها فى بداية امرها لتطهير الارض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها وجاهدت من تلوث من عقائدها من اليهود والرومانيين وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند اهل العلم وغيرهم لا حاجة الى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلوّ فى التشبيه ظهرت المظالم وعظمت المغارم واختفى العلم وخسئ العقل وتهدمت اركان النظام واستشرى الفساد فى الامم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه واستقامت اوربا فى طريقها المعروفة اليوم وقد اشرنا الى شيء من اسباب ذلك .

لم نسمع ان احداً من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نر اثراً لاحدهم يدل على انه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بانها عقيدة

لا مجال للعقل فيها فلا مكنة له فى ان يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم فى ازمان مختلفة تصرح بان فرقاً بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل وذهبت الى ان المسيح لم يكن الا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم . واعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم فى بعض اسفارى واكد لى ان لهم شيعة تدين بذلك .

وهل كانت المسيحية فى سالف الازمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم .

انى ارفع ادباً من ان اطعن فى عقائد المسيحيين فى جريدة وقد امرت ان اجادل بالتى هى احسن . ولكنى ارجع الى الكلام فى الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلاً :

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام . ولم ينكر ان فى اليهود وفى المسيحيين خصوصاً اهل تنزيه وذكر ان منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى اصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه .

هبت الوثنية واليهودية والنصرانيـة لمناوأة الاسلام وكانت اكثر عدداً واوفر عدداً وأعظم قوة وأشد بأساً فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب فدخل الناس فيه افواجاً من كل ملة من هذه الملل . فأعتقت الهمم وافتكت العزائم من اسرها واخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود واخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على اسرار الوجود ومزقوا تلك الحجب والاوهام واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين . ولم يكد اهل الملة يستريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت انوار العلم فيهم ولم يبق باب من ابوابه الا دخلوه ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وابرزوه للانظار .

هذا اثر الاسلام وهو دين التنزيه ولم يكد ينتهي القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون فى علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ونقحوا القواعد وحرروا الاصول . وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الارض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لاهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو .

اني اكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من اهل النظر فى الامم الغربية اليوم : «أقامت النصرانية فى الارض ستة عشر قرناً ولم تأت بفلكى واحد وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين .»

ومع هذا لا يعد ذلك طعناً فى أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له .

يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه . ولكنه وهم فى ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه . قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى اليهما : مقام الالوهية التى تفرد بها ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها . وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان وينالها باستعداده لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره .

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع الى التقدم سبيلا . هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى اخطأ فى فهمه مسيو هانوتو فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفى هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الاسلام ان يطلبه فى كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون . ولو استشم مسيو (كيمون) الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ولا حاجة الى الكلام فيه فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه .

من أين أتى المسلمون وكيف دُخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه وفى عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا اعلم ذلك واهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم وطارحوهم الاوهام حتى انجروا الى مطارحهم وباؤا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم — لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ماهداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

يرى كيمون أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين : وبئسما اختارا لسياسة بلادهما ان يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ان الاسلام ان طالت به غيبة فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« انه يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار . فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من انصاره . »

ويأسف أشد الاسف من ان السكر والفحش والقمار تنشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم وقال انه « يختار اسلاماً لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر . »

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من اطراف آسيا وسترشده الحواد ث الى طريق الرجوع الى طهارته وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته وتدرك عند ذلك الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله .

لو اسلمت الامة الفرنساوية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده فى الجزائر ومداغسكر — هل ترجو من سكان مستعمراتها ان يميلوا اليها وان لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى افنائهم ؟

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة اصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهوّن عليه الرضاء عنه . ولكن هانوتو واضرابه من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شيئاً من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون : فلينتظروا انا معهم من المنتظرين .

حديث

لسعادة صاحب الاهرام مع جناب الموسيو هانوتو

١

رأيت وانا فى باريس ان اقابل المسيو هانوتو وأقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص . ولما كان هذا الموضوع من اهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على احوال اوروپا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية ، توخيت ان انشر اقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فاذن لى . ومن هذه الاقوال يعرف القراء الكرام ان الرجل اذا كان قد قصد فى ما قاله خدمة امته وبلاده فهو قد انذر الشرق واستلفت رجاله الى اصلاح شؤنه لان البقاء على حالة واحدة مع تقدم اوروپا المستمر هو عين التأخر . على ان ذلك لايدوم اليوم واوروپا على ما هى عليه من الاتفاق السياسى والاندفاع الاقتصادي . فعلى الشرق ان يتعلم من كل كلمة وان يدرك خيره من مغزى كل لفظة ونحن قد نقلنا اليه الآراء والمقاصد الاوروپية لنفى فرضاً تقضى به الخدمة والذمة . قال :

انتم تعرفون من تاريخ اوروپا ان امما ما تقدمت علماً ومدنية

واختراعاً الا يوم تقيدت السلطة المدنيــة وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وانالم اكتب الا الى ابناء وطنى الفرنسويين ولم استشهد (بكيمون) وهو يونانى الجنس الا لأفند اقواله التى لم ينفرد بها. فان كثيرين من الـكتاب الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله. وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك. وحجة هؤلاء واحدة وهى انه كلما تقدمت اوروبا تاخر الشرق. لان الواقف يتاخر بقدر مايسير الماشى وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج اوروبا علماً ومدنية فنجحت، مع ان العثمانية وافغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ماكانت عليه فى السنين الغابرة. وانا ذكرت من هؤلاء الـكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون مايقال عنهم ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الـكتاب الذين على رأيه لاعتقادى ان الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس فذكرتها مثالاً أؤيد به اقوالى وسياستى: هذه هى روح كتابتي السابقة وانها ستكون روح اللاحقة.

والذى دعانى الى ذلك ما كان من هؤلاء الـكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الـكرات الصليبية كما كان فى الاعصر الخالية، وما دفعهم فى الايام الاخيرة الى ذلك الا الحوادث الارمنية وغيرها. ولما كنت قد وقفت نفسى لدرس حياة (ريشاليه) السياسى الشهير وسرت فى اكثر اعمالى وكتاباتى على منهاجه وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكى وكردينال من اعمدة الـكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة

العوجاء سياسة الصليبيين وحال دونها بدهائه المعروف مع انه كان القابض على سياسة فرنسا واوروبا معاً . فاذا كان هذا السياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة اقرب المقربين اليه فى تلك الاعصر أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ؟ لا لعمرى . فلهذا عارضت بالامس ولهذا أعارض اليوم . ولحسن الحظ ان الرأى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حرباً تشب نارها اعتداء ولا سيما الحرب الدينية فهى عدوة المدنية بل هى افظع الاعمال .

على ان معارضتى لامثال هؤلاء الكتاب اى نقضى لاقوالهم لا يمنعنى عن ان اقول لكم الحقيقة لانه يستحيل علىّ ان أقول ان شرقكم سائر على منهاج حكومات اوروبا فى العدل والحرية والمدنية ، كما انه يستحيل علىّ ان اقول ان فى حالتكم الحاضرة ضماناً لمستقبلكم السياسى : فاعلم ان اوروبا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون ، لا عن عدم اعتقاد بل لتفضلها عن السلطة المدنية . فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن اراد افراد اممها اولاً ولفيف شعوبها ثانياً ان تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنيـة فى احوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بان يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

واعلم ان الذى ايد هذه السياسة أيضاً فى بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة رومة واحد اقطاب الكنيسة الكاثوليكية اى الكردينال (ريشلييه) فهو الذى قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسية الدينية معرفة الحقيقة . وهو بهذه السياسة خدم السلطتين اشرف خدمة اذ ايد السلام

بينهما فتأيدت سطوة الحكومات المدنية ، وتقدمت شعوب اوروپا تقدماً عجيباً ، واعتزت السلطة الدينية ايضاً ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام .

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسويين فى مستعمراتنا بان يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية .

وانى لا اكلمك كمسيحى بل كمؤرخ او ككاتب حر الضمير لا شأن لغيره فى معتقده الخاص . ولكننى احترم أدبيات كل دين ومعتقد واقدر تلك الادبيات قدرها . ولكن الماديات غير الادبيات والاولى (الماديات) من شؤون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيي به . وكل امة لم تتقدم فى مادياتها لا بد ان تموت اذ لا حياة بلا مادة . وإلهكم انتم الشرقيين اله اوروپا واله اميريكا . اذن اله الجميع واحد ولا يمكن ان يكون اكثر انعطافاً على الاوروپى منه على الاميريكى فالشرقى ، بل ان الشرقيين عموماً اكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين . وقد علمنا ان اوروپا فاقت شرقكم بمراحل ونرى اليوم اميريكا تزاحم اوروپا وكثيراً ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها . ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى اميل الى الاميريكى منه الى الاوروپى او الشرقى ، ولكن لأن الاخير مستميت والاول حي : هذا يشتغل مجتهداً وكلما زادت ارباحه زاد نشاطاً واقداماً ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلماً .

ولهذا تقدم الاوروپى وتأخر الشرقى . وضيق اوروپا باهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب فصادف ابناؤها ارضاً واسعة وشعوباً لا حراك

بها فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها .

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى اهل الجزائر ؟ ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسوية ان ترى فى احوال هؤلاء؟ قال : اما التونسيون فلاخلاف فى انهم مسرورون بحالتهم ونحن قد دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف مزق شملها افراد حكموها . واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ولم نسألهم الا امراً واحداً ، اى احترام سلطتنا السياسية . فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ولهذا كان النجاح عظيماً فى مدة قريبة . وانت تعلم ان مذهبي فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لا ضم المستعمرة الى فرنسا كما فعلنا فى مدغسكر بالرغم عن معارضتى ذلك وقد رضيت به منقاداً لاوامر اكثرية دار الندوة . ولا انكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر . وقد شرعنا فى ذلك وساكتب كثيراً فى هذا الموضوع لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ودرست احوالها واملي ان لا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى قبلى وشرعت حكومتنا فى انفاذه .

قلت : انى اعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى اوروبا وعن احوال شعوب البلادين ، ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولا سيما فى الحكومات الاسلامية . والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الا خصوماً للمسلمين لاعتقاد هؤلاء ان فى فصل السلطتين ضعفاً

ترومه اوروبا لتنال بغيتها منهم .

قال هانوتو : انا لا اسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن اعتقد ان اوروبا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة كما انى اعتقد ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع ان تخسروا فى الحروب الماضية واعتقد ايضاً ان صاحب السلطتين ولا سيما فى بلاد كالشرق يستطيع ان يجرى اصلاحات لا يقدر غيره عليها . ويعلم المسلمون ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس وانكلترا من التهام الهند وروسيا من اخذ خيوى وغيرها الى حدود افغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والبلدان اسلاميان . فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيداً سياسياً يستحيل ايضاً توحيد سلطتها الدينية . وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة لها . واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (واود ان اعتقد انا مثلكم ايضاً) لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادى واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان اوروبا تحول دون تلك الاصلاحات ، اجابوكم ان اكثر الدول كانت دائماً معكم الى سنة السبعين وبعدها . فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم فاصبحت اوروبا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الاقصى ؟

واذا قال لكم أولئك الكتاب انا مقتنعون بان اوروبا وشعوب تركيا

حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى اوروپا والقريبة من اوروپا كسوريا مثلاً ، سألتكم هل مسلمو بغداد ومابين النهرين وحلب راضون عن احوالهم؟ ايظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون احوالهم هنالك حيث لا اوروپى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟

وانا اعرف ان امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قدحان لكم ان لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم اجنبى ما دام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها . كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم فكان ذنبهم نحو وطنهم اعظم من ذنب الحكام الظالمين . وانى اقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم رداً على ما كتبته ، فقد عدونى خصماً لهم ونسوا خدماتى لهم وانا فى منصة الوزارة الخارجية فى ايام المسئلة الارمنية . فاذا كان هذا رأيهم فى صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير اوروپى ان يرتأى مثل تلك السياسة . ولا أقول هـذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل اوروپا على وجه عام مبادئ سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية . فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين .

فقلت للمسيو هانوتو : وماشأنكم والشرق وامه؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة اجنبية او اوروپية . والذى ينفر الشرقى هو ظلم اوروپا فى سياستها هذه . وعتبنا على فرنسا اكثر من غيرها لانها عودتنا

حماية الضعيف من القوى . فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الاقوال خيالية لا تنطبق على حالة اوروپا فى هذا الزمان . فهى بعد ان كانت لا تهتم بغير قارتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها . واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى ارى كتّابكم وافراد امتكم يجهرون فى غالب الاحيان بافكار صبيانية فيُستعبدون للالمانى لنكاية الانكليزى وينتصرون للفرنساوى على الالمانى . ولكن أما حان لهم أن يعلموا ان الاوروپيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين : لان هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة او اغراض تلك الامة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية : وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها اوروپا اليوم . وانت تعلم ان المانيا — اكثر الدول فى اوروپا استقراراً وابعدها استعماراً — هى التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ فى الصين وهى التى سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد . وهذا ما يدلكم على ان اوروپا لا تسعى الا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها او صعب على طبعها .

٢

ثم قال لى انت تقول لى ان الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة اوروپا كلها أو بعضها ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك ولاسيما وان اكثر الدول طامعات فى املاكهم وحضرتك اكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة اوروپا .

والمسلمون يعتقدون أيضاً ان مصلحة اوروپا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على انفسهم من سياسة الدول المسيحية . وقد ادى بهم فقدان هذه الثقة الى ان لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم . وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل اوروپا فى اعمالهم ومن افعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء فى بلاد الدولة او فى سفاراتها . وانت تقول لى ان فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يغدرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الآستانة وپاريس ، ولكن تفنيده امر سهل واليك البرهان : لا يسعك والساسة المسلمين ان تنكروا ان بعض دول اوروپا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى اوروپا فان هذا حصل قولاً وفعلاً فى حرب القريم : فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة

دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول اوروبا عند نيل اغراضها فى المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمنَ سلطنتكم اجل خدمة فى المسألة الارمنية بالرغم عن هياج الرأى العام الاوروبى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك امور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً ان فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على ان ضالة اوروبا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ولا دخل للاعتقاد ألبتة فى أعمالها . ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية ان تحارب اوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ وألم تحارب ايطاليا اوستريا ؟ وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكى من ان تحالف روسيا ومذهبها ارثوذكسى ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستنتى الالمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى . وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا واهلها من اقرب العناصر الى الجنس السكسونى وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها . كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق . واذا وجب ان يلوم المسلمون سياسياً مسيحياً يخدمهم فكم يجب ان يلوموا ساستهم العديدين ؟

أفى مراكش مسيحي موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية فى غير أيدى المسلمين ؟ فاذا كان ذلك السفير غير اهل لمنصبه أو ان رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقى عليه وزير خارجيتكم اوالصدر الاعظم ؟ وهل قام ولاتكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصلحة الوطن ؟ نعم لا انكر ان تداخل اوروبا او

بعضها نفركم، ولكن بعض الحوادث التى حدثت فى جهات عديدة من
بلاد الشرق هي التى كانت سبب ذلك التداخل .

وانى اتساهل معك واقول ان بعض دول اوروپا يريد لكم سوءًا وان
هذا ولَّد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوروپيين ، ولكن اذا كان قد استحال
على دول الشرق وهى فى اوج مجدها وشامخ عزها ان تتحد وتوحد كلمتها ، فهل
يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة اوروپا عداء
لمصلحة الاسـلام لان اوروپا مسيحية — وهو زعم باطل — فهل كان ما
ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف
اوروپا ويمنعها عن انفاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ وكيف يمكن ذلك الاتحاد
المزعوم ؟ أترضى به اوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة فى غيرهما ؟
ام تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة ؟ ام تؤيده انكلترا وعدد
رعاياها المسلمين عظيم ؟ ام تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقاً فى الرأي من
الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأنى بهم هم الذين يريدون إنفاذ ما يطلبه
(كيمون) وغيره من كتبة اوروپا . وقد كان اولى لمثل اولئك الكتاب ان
يكتبوا كتابات ادبية بلغة الكتبة الاوروپيين لتفنيد اقوالهم ولاستمالة الرأي
العام الاوروپي اليهم .

اما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين
الغابرة او الذين درسوا فى اوروپا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل
من مبادئها وسياستها فهو ان يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم
وان يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب

بان يتخذوا اقدام اوروبا واجتهاد ابنائها مثالاً يسيرون عليه وأنموذجاً يعملون بموجبه : اي كما فعل اليابانيون فى السنين الاخيرة . وانت تعلم ان الذى نبه اليابان هو خوفها من اوروبا وهي لم تتعزَّ عن ضعفها باحتقار الاوروبي وذمه والمباهاة بمجد الآباء . ولم يقل ياباني بتحقير الاجنبي لانه عنصر غريب او لانه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين اهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة اوروبا ولكن بسلاح اوروبا . اي بان تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام ولهذا فازت فى مطالبها وحالت دون فتوحات الاوروبي الاقتصادية أولاً فالسياسة ثانياً . ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القريم لما شكا مسلم من اوروبا ولما شكا كاتب اوروبي من حال الشرق واهله . بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الاوروبية سواء فى اوروبا او فى الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية اضعاف حظوظ اعظم دولة اوروبية .

واراني فى هذا الشرح قد بلغت ماقصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن . وقد كان يجب عليهم ان يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم ، لا ان يتجاهلوها ويكذبوها .

وتقول لى ان النهضة العلمية بدأت فى مصر وان بعض الافراد انشأوا المدارس وان الجناب السلطاني قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وان اصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة

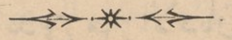
والامل وطيد بالنجاح ولكن الطفرة محال . وهذا امر يسرني ويشرح
صدري لأني ارغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم . ولكن يجب ان تعلم
ان العبرة ليست فقط في اقامة المدرسة بل في وضع البروجرامات المدرسية.
كما ان العلم وحده لا يكفي وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب . فاني لا اجهل
ان كثيرين من ابناء الشرق درسوا في اوروپا وقد يربو عددهم على عدد
اليابانيين الذين درسوا في اوروپا ايضاً . ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم
نرها حتى الآن عندكم . ولعلنا نراها يوماً لاني اعتقد ان رجال النشأة
الجديدة ينجحون نجاحاً كاملاً اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن
كل غاية شخصية او مذهبية . لان الوطن الواحد قد يجمع اكثر من
عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصراً واحداً .
وانت تعلم ان الفرنسوي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي
والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكي الفرنسوي
والفرنسوي الكاثوليكي او الكاثوليكي او المسيحي لا يشمل كل فرنسوي.

لهذا كانت الرابطة الوطنية اعلم واشد من الرابطة الدينية وهي التي
كانت قاعدة اوروپا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت .
والى هنا قد اجبتك على جميع ما اردت ان تعرفه مني عن رأيي في الشرق.

اما الصين فاظن ان مسألتها ستنتهي باحتلال پيكين عاصمة الصين
لان حكام هذه المملكة لا بد ان يكونوا مع اوروپا ضد البوكسرس .
والدول لا تأنف من استخدام هذه السلطة الشرعية للانتقام من الثائرين
واعادة الأمن الى ان تتخذ في تلك الارجاء وسائط فعالة يتلافى بها حدوث

فتنة فى المستقبل ، واذا حدثت كان لاوروپا اكثر من ١٠٠ الف عسكري فى مناطق نفوذها الحالية مستعدين فى كل ساعة لدرء كل ملمة ولقمع كل ثورة .

وهنا استأذنت محدثى بالانصراف شاكراً ما لقيته من لطف حضرته وهو ما عوّدنيه على الدوام سواء عند ما كان وزيراً قابضاً على زمام خارجية فرنسا او كاتباً يستخدم قلمه فى خدمة بلاده وينشر اقواله فى الجرائد السيارة . فبالأمس كان وزيراً خطيراً يعرف اسرار دولته واليوم هو كاتب سياسى ورفيقه قلمه وقرطاسه ، شأن اكثر ساسة اوروپا . وبذلك لا يحرم وطن هؤلاء الجماعة من فوائدهم سواء كانوا عاملين او مستقيلين : فكيف لا تقدم اوروپا ولا يفلح رجالها ولا تتسع املاكها وهذا شأن رجالها ونوابغها .





هذه هى رسالتى الثالثة والاخيرة عن اقوال المسيو هانوتو السياسى الشهير والكاتب المجيد وقد ضمنتها بعض ما فاتنى ايراده من حديثه فى الرسالتين السالفتين وما ابديته لحضرته من الآراء والافكار . وفى نشرها اتمام للفائدة التى توخيتها من محادثة هذا الرجل العاقل المجرب .

قال المسيو هانوتو فى خلال اقواله : ان غير دولة اوروپية تروم

مخالفة الدولة العليـة لا مصافاتها فقط والاتفاق معها على بعض الامور والشؤون ، ولكن على شرط ان تكون قاعدة هـذا التحالف سياسية محضة لا تشوبها اغراض ثانية ومآرب اخرى . لان الدول الاوروپية مهما تخالفت مصالحها السياسية تجمعها جامعة واحدة فيما يتعلق بدولتكم فلا يتم ذلك التحالف المطلوب . وبعبارة اصرح ان كل دولة لهـا غرض ما فى بلاد مشرقية قد استخدمت على زعمها تعصب رجال الشرق فى تأييد سياستها وتقوية نفوذها . فهل من مصلحة الشرقى بعد ذلك ان يسعى الى تعميم هذه القاعدة الوخيمة العواقب وان يخدم بها خصومه واعداءه ويُبْعد عنه احباءه ؟ وقال المسيو هانوتو فى موضع آخر من حديثه : ان الوزير فى اوروپا كيفما كان دينه لا ينظر فى سياسته الا الى مصلحة بلاده المالية وفائدتها السياسية . وكم من وزير فرنسوى تولى وزارة الخارجية ومذهبه پروتستنتى او انه لا يعتقد بدين من الاديان ، ولكنك تراه يساعد جماعة المبشرين فى بلاد الصين وافريقيا وغيرهما . وانا نفسى عند ما كنت وزيراً فى بلاد هى مسيحية بل هى حامية الدين الكاثوليكي فى الدنيا رأيت من باب السياسة ان احافظ على مصلحة الدولة العثمانية واسعى الى ضمان سلامتها فى ايام الحوادث الارمنية مع ان اهل اوروپا كلهـم كانوا يطلبون مجافاة دولتكم والحاق الضرر بها . وعلم الله ان هذه السياسة التى اتبعتها قدجلبت عليّ ضرراً شخصياً وحملتنى متاعب كثيرة ، ولكننى نظرت فيها الى مصلحة الامة العامة .

وقال عن تحالف روسيا وفرنسا انه يزداد تأيداً ووثوقاً كل يوم

وان الحكومة الفرنسوية متفقة اتفاقاً تاماً مع روسيا فى جميع المسائل الخارجية وان المسيو دلكاسه وزير الخارجية الحالى قائم خير قيام باعباء منصبه وجاعل نصب عينيه خير فرنسا وحفظ السلام التام .

هذا جل ما فاتنى اثباته من حديث المسيو هانوتو فى المقالتين السابقتين . وهنا اذكر ما قلته له وملخصه ان الشرق اليوم فى بداية نشأته ونهضته وقد ادرك انه مفتقر الى المدارس فسعى الى انشائها والاكثار منها فى كل ناحية وقام من المصريين افراد عرفوا فروضهم الوطنية فبذلوا من اموالهم لانشاء المدارس وحق للامة المصرية ان تفاخر بهؤلاء الافراد الاسخياء الغيورين (وقد سردت له اسماءهم) ولكن لسوء البخت ان تهجم دول اوروپا كلها او بعضها فى هذه السنوات الاخيرة على الشرق وطموحها الى الاستئثار بمنافعه قداضرا به وربما حالا دون نجاحه وارتقائه . و نحن معاشر الشرقيين نعتقد ان خصومنا لما رأوا تلك النهضة السياسية والبعثة العلمية بعد طول الخمول جنحوا الى عصرنا والضغط على رقابنا . والا فلماذا لا يهتم رجال الانكليز فى مصر بمدارسها ومعارفها ؟ ولماذا نرى الدول تعاكس جلالة السلطان وتناهض حكومته كلما قال بمشروع مفيد وعمل جليل يفيد امته وبلاده وتبذل جهدها فى غل يديه عن انفاذ نياته الجميلة ومقاصده النبيلة . ولنا فى المسألة المصرية دليل قاطع على صدق هذا القول . فان جلالته كان كلما اراد ان يتداخل فى شؤون مصر اما منفرداً واما متفقاً مع بعض دول اوروپا اشارت عليه المانيا بالسكوت فسكت . على اننى اوافق حضرتكم على استحسان ما نشرته جريدة الديبا منذ ايام وهو ان استخدام السلطة

الدينية فى مصر تؤيد انكلترا وتوطد قدم احتلالها لانه يستحيل على اية دولة كانت حتى فرنسا ان تعضد هذه السياسة الجديدة . لان كل دولة عندها رعايا مسلمون عديدون ولان حكومات اوروپا مسيرة فى الامر غير مخيرة اذ الامر والنهى فيها للرأى العام مهما استبد حكامها وجاروا فى حكومتهم .

وقد رأينا جريدة التيمس تندد فى عددها الاخير بسياسة جلالة السلطان لانه عيّن انيس باشا والياً لحلب وقالت ان جلالته لم يعين هذا الرجل لتلك الولاية الا لانه حسب اوروپا مشغولة بثورة الصين فانتهز الفرصة وعين انيس باشا والياً لحلب . مع ان دول اوروپا طلبت عزله من ولاية ديار بكر فى زمن الحوادث الارمنية مما يدل على اننا غير احرار فى بلادنا وشؤونها واننا اذا اتينا امراً وجب ان توافق عليه الدول كلها والا فلا ينفذ . ويستحيل ان يكون ذلك ملائماً لمصلحتنا لان اجماع الدول على الرضى والموافقة لا يتم الا باساءتنا الى بلادنا وانفسنا لانه يستحيل علينا ارضاء البعض واسخاط البعض الآخر . ولو حالفنا التحالف الثلاثى او الثنائى او لو رضينا بالاتفاق مع انكلترا لكنا على يقين باننا خاسرون لاننا نصبح مضطرين الى ارضاء التحالف الذى نختاره بكل ما عز وهان . وقد يضحينا هذا التحالف فدى لاغراضه وحفظاً لمصالحه مع التحالف الثانى . وهذا هو الامر الذى ولد فينا عدم الثقة وحدا بنا على البقاء منفردين دون ولى ولا نصير .

فقاطعني المسيو هانوتو وقال : انه ما من دولة تمنعكم عن اصلاح

داخليتكم وان من مصلحة اكثر دول اوروپا ولا سيما فرنسا ان تكون دولتكم قوية فى البر والبحر لان مصالحها تقتضى وجود هذه القوة عندكم . ولولم تكن دولتكم موجودة لتمنت الدول وجودها . ولولم يكن هذا الامر اى حفظ كيان الدولة العثمانيـة وتمنى بقائها قوية مدار سـياسة بعض الدول الاروويية لما استحال اتفاق اوروپا عليكم كما اتفقت على افريقيا وكما انها ستتفق على الصين . وانى لعلى يقين بانه لو عرف رجالكم كيف يستخدمون سياسة بعض الدول فى سبيل مصلحة بلادهم لفازوا برغائبهـم وتمكنوا من تعميم الاصلاح وتعزيز المملكة ايضاً حتى اذا حالفت دولة اودولاً شاطرتها فوائد التحالف كما هى الحال فى المحالفتين الثلاثية والثنائية .

والذى سرنى من اقوال المسيو هانوتو ان فى اوروپا ساسة كثيرين يرون رأيه ويقولون اننا اذا انتهجنا خطة الثبات والحزم ونبذنا اليأس مهما عارضنا خصومنا وعملنا لانشاء المدارس وسعينا الى نشر العلوم وادرك رجالنا فروضهم على حسب ما تقتضيه المصالح السياسية والمالية — قدرنا على تحقيق امانينا الوطنية وأنهضنا شرقنا من كبوته وحفظنا املاكنا وكان لنا فى السياسة شأن ومكانة وتقاسمنا مع الدول كلها او بعضها فوائد السياسة السلمية .

ردٌّ

على هذا الحديث الاخير (*)

١

حضرة الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

ألقت اليَّ الصدفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء فيهما حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام .

ولم اشك فى ان كثيراً مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو لانه لا يصدر الا عن عارف مثله باحوال اوروبا وكثير من احوال المشرق . ولهذا رأيت ان حرمانه من حظ النظر فيه وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه يعد ظلماً له وجوراً عليه خصوصاً ونسبة القول اليه مما يدع فى اذهان الناس أثراً لا يحسن السكوت عنه .

وقد جاء فى كلامه مايدل على انه قد اصيب بشىء من سوء الفهم فى احوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق

(*) مؤيد يوم الاربعاء ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٨ (٢٥ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣١٢٠

والخصام بين اهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيرة على الحق ان لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق . وارجو ان يترجم ما اكتبه فى جريدة المؤيد الفرنساوية وان يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ماغاب عنه من مقاصدنا وافكارنا .

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمقال لم يكن انفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها . وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار فى ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها . وصرح لهم بان الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخيال . وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال . وما على المهتم بحماية ذماره وطالب الطهر من عاره الا ان يدرك مُدركهم ويعمل عملهم ليبلغ من الحول حولهم فيفوقهم فى القوة او يكون مثلهم فيتعاوض فى المنافع معهم معاوضة الممالك مع الممالك . لا ان يتسلى بالاعاليل ويلهو بالاضاليل ويقنع بالامانى ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى وهو من روح قائله خلى . حتى اذا دهموه وهو فى غفلته واخذوه فى نومه او يقظته بسط يده يلتمس الرحمة منهم ويرقب ان يفيض عليه سيب العدل عنهم : فهذا عمل الجاهل الاحمق وهو بالذلة والاستعباد احق .

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من اجنبى منه وكان يجب عليه من قبل ان يقبلها من ابى بكر الصديق رضى الله عنه فقد قال لخالد بن الوليد حين ارسله لحرب اليمامة : «حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح» .

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد وكل عمل يأتيه احد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح وكل تجاذب او تدافع بينهما فهو كفاح وكل منفعة حفظها اواستخلصها منه فهى غنيمة وكل انخذال عن حق او تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد وقوته أشد وسلاحه احد . فاذا قربت القوتان من التكافؤ امكن لمصالح المتنافسين ان تتفق وسهل على كل منهما ان يرتفق والا استحال الاتفاق واستبد القوى بالارتفاق بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء : سنة الله فى عالم الاحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما اجمله بعض اساتذتنا فى قوله : « العدل تكافؤ القوى »

صرح مسيو هانوتو بأن اوروپا بعد ان كانت لاتشتغل الا بما يجرى فيها اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الامم التى تريد الاستعمار فيها وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت فى المدنية وما اصلحت من شؤنها الداخلية وما اعدت لوقاية ممالكها وحماية مسالكها قد آذنت اوروپا بقوتها وحملتها على الاقرار بمكانتها فحمت بلادها ومصالحها من صولتها وامكنها برهان القوة ان تؤلف بين منافعها ومنافع الاوروپيين . وهو قول حق وكان على المسلم ان يعرفه من قرون وله فى كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ولا حد لما

تستطيعه امـة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له واطلقت له القوة وهى كل مايقوى به خصم على خصم ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد او يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب . وخير القوى ما حفظ به الحق وعظمت به المنفعة ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده حتى يستقر السلام بينهم وتشمل الطمأنينة شؤنهم .

وقد تألفت قوى الامم الاوروبية من عناصر هى العلم والادب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأَن مسيو هانوتو لاينكر ان اوروبا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار وان المرسلين والجمعيات الدينية من اهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عنـد سنوح الفرص لسوقه اليها وتهيئة نفوس الامم لاحتمال مايقضى به ذلك السلطان متى اظلهم وفي فتح المغالق التى لايستطيع السلاح وحده ان يفتحها وتمهيد السبل التى لايمكن لساعد الجندى وحده ان يمهدها . وهو من الامور المسلمة التى لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو فلا حاجة للاطالة في بيانه . غيرانى اذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم احد ابناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية فى تلك البلاد واخذ عن اساتذته كثيراً من آدابهم وطالع عدداً من مؤلفات كتابهم وامتلأ قلبه بحب فرنسا واستقر فى ذهنه انها منبع نور العلم والحرية وانها محررة العالم اجمع من رق الاستبداد . ثم اشتغل بكتب الفـلاسفة الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسـيين فعظم عنده

الاعتقاد بان هذه الامة الجليلة انما يهمها فى سياستها ان تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس لتربيتها على اصول العقل وحرية الفكر . ورای ان من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية ان يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس فى جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة . فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ واتصل باحد اذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنساوية وطلب منه ان يكون وسيلته فى نيل ما يرغبه من معونة الحكومة فسعى الذكى سعيه ثم عاد الى صاحبه وقال له ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنساوية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة فى سلطتها لكن سياستها فى الخارج دينية محضة . ويمكن ان تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك . فان كنت تريد انشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان أملك فى المساعدة قريباً ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعدما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من اصدقائنا اذ ذاك وكان لي حظ فى مساعدته كما كنت شاهداً الحديث الذى رويته .

فان لم يسعَ المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها او تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ولقول الصديق رضى الله عنه ومستحقاً للوم مسيو هانوتو ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوروپيين الى يوم القيامة . بقى على الكلام مع هذا الوزير فى امرين : الاول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الايام وما يسمونه دعوة الى توحيد

كلمة المسلمين قاطبة وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والامر الثانى سوء ظن المسلمين بالسياسة الاوروپية بل بالمسيحيين اجمع حتى وصل فقد الثقة بهم الى ان لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً فى عمل من اعماله وان أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره :



« شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية » (*)

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين . ولو خطا خطوة الى معرفة احوالهم على ما هى عليه لما خطر بباله ان يشير الى هذه الدعوة فضلاً عن ان يبنى عليها حكماً . وان ما علق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك فى اذهان سياسيي المغرب . وقد يكون لسوء نيـة بعضهم مدخل فى تعظيم ما توهم فيها.

وانى اعرض الحقيقة كما هى لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس وارجو ان يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد امثال صاحب الجريدة

(*) مؤيد يوم الخميس ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣١٨ (٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣١٢١

التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى انفسهم واهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ولا من السكون شغباً .

لا أنكر ان طائفاً من الدين طاف فى هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين فى اقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نَفَس الرحمن مرت بأنفس قليل من اهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه اهل هذا الدين وفيما صاروا اليه . وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلاً الى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب او جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون . ولا كلام لنا فى هذا المقلدين وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين .

ظهر الاسلام لا روحياً مجرداً ولا جسدانياً جامداً بل انسانياً وسطاً بين ذلك . اخذ من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره . ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . ثم لم يكن من اصوله «ان يدع مال قيصر لقيصر» بل كان من شأنه ان يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله .

جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالاً وألان قاسياً وهذب خشناً وعلم جاهلاً ونبه خاملاً وأثار الى العمل كسلاً واقدر عليه وكلاً واصلح من الخُلُق فاسداً وروج من الفضيلة كاسداً . ثم جمع متفرقاً ورأب منصدعاً وأصلح مختلاً ومحا ظلماً واقام عدلاً وجدد شرعاً ومكن للامم التى

دخلت فيه نظاماً امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك
عند اهله كمالاً للشخص وألفة فى البيت ونظاماً للملك وظهرت به آثار النعمة
عليهم فى جميع شؤنهم ولم يفت العلم حظهُ من عنايته بل كان قائده فى
جميع وجوه سيره .

فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل
سياسة الملك ولا طرق المعيشة فى البيت لم يسعه ان ينكر انه اوجب عليهم
السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية واوجب عليهم ان
يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا المملكة .

وما ظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو فى مدينة يثرب من بلاد
العرب : « لو ان سخلة بوادى الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر ؟ » - ويقول
خليفتـه الرابع : « أأقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا أشاركهم فى
مكاره الدهر او اكون أسوة لهم فى جشوبة العيش ؟ — اى خشونته — »
يريد بذلك ان يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الاغنياء فى
الاحسان واسوة الفقراء فى حسن الصبر .

هكذا كان الاسلام مهمازاً للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال
ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به فى استعراف الاحوال وتقويم الافكار
وعاطفاً يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم
الارض سادة لها وقادة لسكانها وكان من امرهم وامره ماهو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هـذا المرشد
الحـكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده

سائغاً فى دينه وان كان فيه ملاك الارض او ملكوت السموات بعد ان شهد من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه .

وا أسفا ! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه . اما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وضعه وتغير فى مداركه طبعه وتبدلت فى فهمه حقيقته وانطمست فى نظره طريقته وحق فيه قول على كرم الله وجهه : « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً » —

لا أبحث الآن فى الاسباب التى وصلت بالدين فى نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكنى أقول ولا أخشى منكراً لما أقول : قد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل باصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتى على اساسها .

عرضت البدع فى العقائد والاعمال وحلت محل الاعتقاد الصحيح وأخذت مكان الشرع القويم وظهرت آثارها فى أعماله وعم شؤمها جميع احواله .

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » اولم يصح فالقرآن يؤيد معناه وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه : فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفى ، وكانا سواء فى علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام وخصال الايمان وفى طلب العلم بما يلزم لاصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف فى كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من ابواب العلم الا دخلا منه بقدر الاستطاعة وما يسمح به الزمان .

ضل المسلم بعد ذلك فى معنى العلم فظن الرجل ان غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم فى صورة ادائها . اما ما يتعلق بسرّ الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الاّ القليل النادر . واما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ولا تنصرف نحوه ارادة : اللهمّ الا من اشخاص قلائل منثورين فى اطراف الارض لا ترقى بهم امة ولا تسمو بهم كلمة .

اما من ينقطعون لطاب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين : الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قَلّ افراده فى معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر . والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والآستانة فانما حظ الذكى منهم ان ينظر فى كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى ان يثق بأن هذا اللفظ دال على ذلك المعنى . ومتى تمّ له ذلك فقد استكمل العلم سواء سَلِمَ عقله ودينه وأدبه بعد ذلك ام لم يسلم .

فكان مثلهم مثل من ورث سلاحاً فكان همه ان ينظر اليه ويملأ عينه منه ولا يمد يده اليه ليستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث ان يأكله الصدأ ويفسده الخَبَثُ . ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة . ومن رأى هؤلاء ان لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا ان ينهوا عن منكر . وقد ارتكبوا بذلك خطأً فى فهم

دينهم لا يساويه فى سوء عاقبته خطأ . وللكثير منهم بل للأغلب من سوء الفهم فى الدين مالاحاجة الى عده .

ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق من العلم لا يظهر لهُ أدنى أثر فى صلاح الامة كما هو مشهود .

والفريق الثانى من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل . وافراد هذا الفريق ان كثروا او قلوا يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد منهم ما به ينال المنصب الذى اعده له والده : على ان ما يحصل امّا لفظ يحفظ او خيال يخزن والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة !

ومن هؤلاء من يذهبون الى اوروپا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية . فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وقصر همه على العمل فيها . ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها . فاذا ملّ الانتظار او انقضى زمن العمل وجدته فى قهوة او ملهى يسرف فى اوقاته ويفسد فى ادواته . والصالحون منهم — وقليل ما هم — لا يهمهم شأن العامة شقيت او سعدت هلكت او قامت . فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الامة ؟ وأستثنى منهم شواذّ فى كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم وتجنى الامم ثمار أعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم .

اما النساء فقد ضُرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن او دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع . ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة او يؤدين فريضة سوى الصوم . وما يحافظن عليه من العفة فانما هو بحكم

العادة وحارس الحياء او قليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام .
وحشو اذهانهن الخرافات وملاك احاديثهن الترهات : اللهمّ الاّ قليلاً منهن
لا يستغرق الدقيقة عدهن :

وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً يعدها بالجنة ويمنيها بالسعادة !

اخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن
العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك
يرضى ربه ويوافى رغائب دينه .

اخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من ان المسلمين خير الامم وان
العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر . فظن ان الخير ملازم لعنوان
المسلم وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه ، وان الله
كفيل بنصره بدون عمل للعبد فى الدفاع عنه . فان اصابته مصيبة او حلت
به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتى به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع
الطارئ او ينهض الى عمل لتلافى ما عرض من خلل او مدافعة الحادث
الجلل مخالفاً فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه .

اخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولى الامر والانقياد لأوامرهم
فألقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف فى شؤونه ثم أدبر عنه حتى
ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون
ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه . ومن رأى حزن
الآباء اذا طلب ابناؤهم لأداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعى
فى تخليصهم منها حكم بأن ما يعقله اكثر المسلمين من معنى الحكومة لا

يكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف ان ثقتهم بالحاكم قد بلغت حد التأليه من حيث ظنوه قادراً على كل شيء بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لا يساعدونه فى حادث ولا يعينونه فى أمر مهم، اللهمَّ الاَّ اذا ارغموا على ذلك. ومن ذا الذى يحسن عملاً اذا أُلجئ اليه بالرغم عنه؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الامور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها: اللهمَّ الاَّ ما يمس شخصه منها!

اما الحكام — وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الامة مما سقطت فيه — فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما اصاب الجمهور الاعظم من العامة. ولم يفهموا من معنى الحكم الاَّ تسخير الابدان لاهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها فى ارضاء شهواتهم، لا يرعون فى ذلك عدلاً ولا يستشيرون كتاباً ولا يتبعون سنة حتى افسدوا اخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى امة الاَّ حلَّ بها العذاب.

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى فى مذاهب شتى فى العقائد وطرق متخالفة فى السلوك وآراء متناقضة فى الشرائع وتقليد اعمى فى جميع ذلك، فتفرقت المشارب وتوزعت المنازع وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة. كل يجذب الى نفسه لا ينظر الى حق ولا يفزع من باطل، وانما همه ان يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاً له

فى الاسلام فى معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين فى اعتقادهم وهى بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضرّ لا كاشف له وانه لا يمرّ عليهم يوم الا والثانى شرّ منه : مرض سرى فى نفوسهم وعلة تمكنت من قلوبهم لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار او خطئهم فى فهم ما صحّ منها ، وتلك علةّ من أشد العلل فتكاً بالارواح والعقول وكفى فى شناعتها قوله جلّ شأنه : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . »

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم وضعضعة فى العزائم وتناقض فى الآراء واضطراب فى العقول وفساد فى الاعمال يبتدئ من البيت وينتهى الى الأمة ويمرّ فى كل طبقة ويجول فى كل دائرة خصوصاً من دوائر الحكومات . وما يُرمَى به المسلمون من التعصب الدينى الاعمى فانما عرض على اقوام فى بعض البلاد الاسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة . على انى لا أسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته فى الأمم المسيحية شرقية كانت او غربية والتاريخ شاهد لا يكذب .

هذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم واعمالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى فهم اصوله وجهلهم بأدنى ابوابه وفصوله . لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم بلطفه . وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم

كل عيب ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ويُعده حجاباً بين الامم والمدنية بل يُعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك افراد من عقلاء المسلمين فى اواسط القرن الماضى من سني الهجرة فى اقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث فى الداء وقدّر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ولعلهم يلتقون يوماً من الايام عند الغاية ان شاء الله .

مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شؤونه . ويمكن ان يقال ان الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت احوال الافراد واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت اخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الأُمة .

فاذا سمعت داعياً يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، او منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، او صائحاً ينكر ماعليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته .

وهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها . فان إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد من عماله أحداً .

واذا كان الدين كافلاً بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل

النفوس على طلب السعادة من ابوابها ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم والعناء فى ارجاعهم اليه اخف من احداث ما لا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

لم يخطر ببال احد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء فى مصر او غيرها ان يثير فتنة على الاوروپيين او غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين . غير ان بعض المسيحيين اذا سمع قولاً فى الدين اعرض عن فهمه وانشأ لنفسه غولاً من خياله وأخذ يخاف منه ويخشى غائلته ثم يسميه باسم الدين . وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شؤونهم ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم واستغنوا عمن ادخلوه فى اعمالهم من غيرهم فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التى نالوها بغفلتهم : وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين ايضاً فان اهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال . وغاية الامر ان ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال الاّ بحق ، والاجنبى الذى كان ينفق الواحد ويربح المائة يرجع الى الاعتدال فى الكسب ويحتاج الى شيء من التعب فى استدرار الربح .

وقد كان المسيحيّون عاملين فى الدول الاسلامية وهى فى عنفوان قوتها والاجانب يطلبون الكسب فى ارجائها وهى فى ارفع مقام من عزتها .

نعم يعرض فى طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه ان يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا او بالهند او بالعجم او بأفغانستان او بغير

هذه الاقطار لأن مرض الجميع واحد وهو البدعة فى الدين . فاذا نجح الدواء فى موضع كان السليم اسوة للمريض فى موضع آخر . اما السعى فى توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين .

يكثر بعض أرباب الاقلام من المسلمين فى حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين فى جميع اقطار الارض ومن أفضل الوسائل للتعارف بينهم فعليهم ان يستفيدوا منه . وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى ان يفهم على غير وجهه . فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم او اختل من اعمالهم وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط او ظلم أو بلاء : وهذا أمر معهود عند جميع الامم التى تدين بدين واحد خصوصاً عند الاوروپيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له . وهذا امر لا ينبغي أن يدهش أحداً فان هذه الدولة هى اكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها أفخم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية :

فأي شيء فى هذا يزعج اوروپا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقوله مسيو هانوتو ؟

بقي الكلام فى جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد :

يقول فيه مسيو هانوتو ان اوروبا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية . وهو كلام صحيح ، ولكن لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين .

لم يعرف المسلمون فى عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الامم المسيحية عندما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الالهية .

وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى وهو الخليفة او السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية . وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية . واهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولا لهم عليه الا تنفيذ الاحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان امكن .

وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاماً لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم وسمحت بان يكون فى محاكمها اعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها .

وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم اهلية بامر الحاكم السياسى وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك فى الدين . فالسلطة المدنية هى صاحبة الكلمة الاولى كما يطلب مسيو هانوتو ، ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الامر معكوساً . فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته فى ارتكاب المظالم والمغالاة في وضع المغارم

والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال .

ان فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك في المشرق ، وملكة انكلترا تلقب نفسها بملكة البروتستانت ، وقيصر الروسيا ملك ورئيس كنيسة معاً : فلم لا يسمح للسلطان عبدالحميد أن يلقب بخليفة المسلمين او امير المؤمنين !

لا أظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها . وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين . فان المسلمين اذا تهذبت اخلاقهم بالدين سابقوا الاوروپيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله .

٣

سوء ظن المسلمين بسياسة اوروپا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة اوروپا المسيحية تخالف مصالحهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية حتى ادى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى ان لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم (*)

سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين فى الآستانة وپاريس ثم اخذ يبرهن على ان سياسة اوروپا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية .

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ومن ابلغه اخبارهم . اهم الهنود – وهم فى حكم دولة اجنبية ولا نزال نرى فى خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماس الحق من طرقه .

هل هم مسلمو الروسيا – وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على احد حتى ان دولة الروسيا تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثذكسي .

(*) مؤيد يوم السبت غرة ربيع الثانى سنة ١٣١٨ (٢٨ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣١٢٢

هل هم الافغانيون — واخلاص اميرهم فى مصافاة الانكليز اشهر من ان يذكر ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها .

هل هم الفرس — واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد .

هل هم المراكشيون — وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم فى غفلة عن الدين والدنيا جميعاً : شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضى لله فيهم بقضائه .

هل هم التونسيون — وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم اهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية بمجرد ما اطلقت لهم الحرية الدينية .

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيـده قوله « ان لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً » والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم .

فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوروپيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الاقباط فى جميع مصالح الحكومة ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصاً اهل الاخلاص وسلامة النية منهم . ولكل من الفريقين اصدقاء واحبة فى الفريق الآخر . ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب الديني البارد وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى .

ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو . فانه بعد ان كان على المسلمين اثناء الحرب الروسية العثمانية وبعد ان أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بانه صديقهم

والساعى فى خيرهم كما افتخر بذلك مراراً فى جريدته وان كانت له اليهم هنات لا تزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث . فأين فقدهذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد احد من خدمة الحكومة لانه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم احد حق المحاماة او انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع او تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد .

اما حالهم مع الاوروپيين فانا نراهم اذا احسوا بعدل من انكليزى ذكروه او وصل اليهم معروف من أى عامل اوروپي شكروه . بل ازيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحقيق مظلمته انكليزى كما شوهد ذلك كثيراً فى شكاياتهم . وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمى . فاى دليل على الثقة اكبر من هذا ؟

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم . ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة الذى يحادثه يعرفان ذلك .

كثيراً ما اغرى الاوروپيون من فرنساويين وامريكيين من ارباب المدارس فى مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصرى الى البلاد الاجنبية واحرقوا بذلك كبد والديه . ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون اولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم واولاده يتربون فى مدارس الجزويت . وكثير من ابناء الاعيان المسلمين فى مدارس الفرير . فأي

ائتمان يفوق هذا الائتمان ؟

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوروپيين خصوصاً فى المعاملات حتى اساء اولئك الاوروپيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيراً من اهل الثروة ما كان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويغالون فى الاستنامة اليهم ويقلدونهم حتى فيما يخالف دينهم وعوائدهم . فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شىء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالاجنبى من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص او غش ، من صدق او كذب ، من امانة او خيانة ، من قناعة او طمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال ؟

فهل هذا هو فقد الثقة بالاوروپيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب مسيو هانوتو ؟

واما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها ايده الله وجدنا ان نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين فى اداراتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون . والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم او فوق ذلك . وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة ما لم ينله مسلم . وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته والاحسان اليه

برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد .

صاحب الجريدة التي نقلت الحديث امثل شاهد على مثل ذلك . فقد جاهر زمناً ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي أن يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى ادناه منه وقبله فى مجلسه وسمع منه امير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين اثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها ؟

اما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهى دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة اخرى بدولة اسلامية . وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث اهمها نشأ من ضعف سياسة مستر غلادستون فأعقبها اضطراب فى تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم انا نراها اليوم تتراجع . وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون .

والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانيـة مع الدول الاوروپية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينيـة من يوم نشأتها الى اليوم ، وانما كانت فى سابق الايام دولة فتح وغلبة وفى أخرياتها دولة سياسية ومدافعة ولا دخل للدين فى شيء من معاملاتها مع الامم الاوروپية .

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر وبهر .

يجيء الامراء المسيحيون من الاوروپيين الى الآستانة فيلاقون من الاحتفال ما لا يلاقونه فى بلاد مسيحية وينفق فى تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة اليه . أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟

كان يمكن للسلطان ان يكتفى بالرسميات ولا يزيد عليها . ولكن عهد فى معاملته ما يفوق الرسمى بدرجات . فان سلمنا ان سياسة اوروپا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانيـة مع اوروپا هى كذلك ومسلموها تبع لها .

فان قال قائل ان حوادث الارمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الدينى بل يقولون ان اسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب الدينى ، امكن ان يجاب بان العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها . ومع ذلك فان كثيراً من الارمن فى خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها . وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الدينى فان المسيحيين سواهم فى الممالك العثمانية أنعم حالاً من المسلمين كما شاهدناه بانفسنا .

ولو انصف الاوروپيون لأمكنهم فهم اسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمناً بعد زمن فى تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه فى اوروپا لا فى آسيا .

لا يغث على ان اقول ان المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوعٍ

من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه . فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟

لا يليق بكاتب مثل صاحب تلك الجريدة ان يروى عن المسلمين كافة مثل ما رواه . فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً ، وانى اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

ليعلم مسيو هانوتو ان جميع ما يقال له او يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا فى ذهن القائل . او الكاتب فلا ينبغى ان يعول على مثله فى احكامه وعليه ان يحقق الامر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه .

واما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله «فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم» فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه :

لو اقتصر على الكلام فى السياسة وبحث فى علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه فى اصلين من أهم اصوله لما اخذ عليه احد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح او غير صحيح . ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها فى المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ماجرت اليهم فيهم ، وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين : وهو ما لا يرضاه احد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفى انحرافهم عن اصول دينهم

واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده لما وجد من المسلمين الا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحته والسلام . اه

دين الاسلام *

اذا نظرنا فيما بين ايدينا من الاديان وجدنا دين الاسلام قد اقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين . ذلك ان عروج الامم على معارج الحق الاعلى وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الاجلى وصعود الاجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلهم السعادة الحقيقية فى الدارين — كل ذلك مشروط بامور لايتم الا بها :

الامور التى تتم بها سعادة الامم

الأول — صفاء العقول من كدر الخرافات وصدإ الاوهام . فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الامر ، بل ان خرافة قد تقف بالعقل عن

* انظر «رسالة ابطال مذهب الدهريين» للعلامة الطيب الذكر الاستاذ السيد جمال الدين الافغانى وتطلب من دار الترقى بسبعة قروش غير البريد

الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك ان يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق وفوق ذلك ما تجلبه الاوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع. ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ويضطرب من هبوب الرياح وينزعج لقصف الرعد والتماع البرق ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الاخافة وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب اسباب السعادة ثم يكون ألعوبة فى ايدى المحتالين وصيداً فى حبائل الماكرين والدجالين.

واول ركن بنى عليه الدين الاسلامى صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الاوهام. فمن اهم اصوله الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الاكوان، متوحد فى خلق الفواعل والافعال، وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان او جماد علوياً كان او سفلياً بان له فى الكون أثرا بنفع او ضر او اعطاء او منع او اعزاز او اذلال. ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله جلّ شأنه ظهر او يظهر بلباس البشر او حيوان آخر لصلاح او فساد، او ان تلك الذات المقدسة نالت فى بعض اطوارها شديد الآلام وأليم الاسقام لمصلحة أحد من الخلق فضلاً عمّا يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى اعماء العقول وطمس نورها.

واغلب الاديان الموجودة لا يخلو من هذه الاوهام: ان شئت فاضرب بنظرك الى ديانة «برهما» فى الهند ودين «بوذه» فى الصين ودين

« زرادشت » فى بقايا الفارسيين وكثير من اديان اخر .

الأمر الثانى — ان تكون نفوس الامم مستقبلة وجوه الشرف طامحة الى بلوغ الغاية منه بان يجد كل واحد من نفسه انه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ما عدا رتبة النبوّة فانها بمعزل عن المطمع وانما يختص الله بها من شاء من عباده . ولا يذهب وهم احد من الامة الى انه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشيء من الكمالات . فاذا اخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة اعنى الاقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر فى مجالات الفضائل وتمادت بهم المجاراة الى محاسن الاعمال فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الامور وشرائف المراتب . ولو أن قوماً اساؤا الظن بأنفسهم واعتقدوا ان نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخسة المنزلة وان لا سبيل لهم الى الوقوف فى مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ما ظنوا فى انفسهم وبذلك يتولى النقص اعمالهم ويملك الخمود عقولهم فيحرمون معظم الكمالات البشرية وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية وتكون جولتهم فى دائرة ضنكة محيطها دون ماظنوا بانفسهم .

ان دين الاسلام فتح ابواب الشرف فى وجوه الانفس وكشف لها عن غايته واثبت لكل نفس صريح الحق فى اى فضيلة وانبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز الاجناس وتفاضل الاصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير : فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . وقد لا نجد من الاديان ما

يجمع أطراف هذه القاعدة . فلديك دين « برهما » قسم الناس الى اربعة اقسام : احدها (برهمن) وثانيها (جهترى) وثالثها (ويش) ورابعها (شودر) وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها فأعلى منازيل الكمال للبرهمن ، ويليها منزلة الجهترى والصنف الرابع أخسها وادناها فى جميع المزايا الانسانية . وكان هذا التقسيم سبباً فى انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقى فى مدارج المدنية وانحسار افكارهم دون الوصول الى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة مع انهم اقدم الامم واسبقها نظراً فى الكون وشؤونه . ومن الاديان ما يغلب اليوم على امم من البشر وفى اصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلا وكتابه المعروف يخاطب ابناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والاهانة . ثم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم واغفل فيما بينهم حتى كأنه لم يكن من دينهم الا ان ما سلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوه لانفسهم فارتفع امتياز الجنسية من بين اهل الدين وخلفه امتياز الصنفية فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين فى قلوب الآخذين بدينهم حتى صار من عقائدهم ان صنفاً من الناس على منزلة القرب الى الله بحيث لا يرد الله له طلبه ثم هو الحجاب بين الله وبين سائر الاصناف لا يقبل الله من احد صرفاً ولا عدلاً ولا يعتدّ له بايمان ولا يغفر له ذنباً بتوبة حتى يتوسط له اهل طبقة الرئاسة . فعندهم ان كل نفس وان بلغت من الكمال ما بلغت ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الالهى ولا ان ترفع اليه طلب المغفرة لخطيئاتها ، بل لا بد فى قبول

ذلك منها ان يكون بواسطة الرئيس الديني ، ومن آمن بالله وصدق به وأخذ باحكامه لا ينظر الله لايمانه حتى ينظر اليه الرئيس الديني ويعتده ايمانا . واستندوا في هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيد ان مايحلونه في الارض يكون محلولاً في السماء وما يعقدونه في الارض يعقد في السماء . وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاءً طويلا وألقت بهم في جهالة عمياء وذلة خرساء زمناً مديداً حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب وقلدوا في ذلك الدين الاسلامي وسموا مذهبهم مذهب الاصلاح ونشروه في ممالك متعددة فلم يلبث قومهم بعد ذلك ان تكشفت عنهم جهالات وحلت من اعناقهم ربق ونهضوا من حضيض ذلة الى ذروة رفعة فنطقوا بعد ما صمتوا وعلموا بعد ما جهلوا وحكموا بعد ما حكموا وسادوا بعد ما سيدوا .

الامر الثالث — ان تكون عقائد الامة — وهي اول رقم ينقش في الواح نفوسها — مبنية على البراهين القويمة والادلة الصحيحة ، وان تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها . فان معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقناً فلا يكون مؤمناً . هذا والآخذ في عقائده بالظن ينصبّ عقله على متابعة الظنون والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به ان يكون عليها يلتقي مع سابقه في مضارب الوهم وفجاج الظن . واولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت ادراكه فلا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر واذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت

عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن اداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت وبئس المآل مآلهم .

فان كان لا بد من الاستئناس لما نقول بقول اوروپى فهذا (كيزو) الفرنسوى صاحب تاريخ (سيڤليزاسيون) اى التمدن الاوروپى قال : ان من أشدّ الاسباب اثراً فى سوق اوروپا الى تمدنها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت ان لنا حقاً فى البحث عن اصول عقائدنا وطلب البرهان عليها — ولو كان ديننا هو الدين المسيحى — وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بان بناء الدين على التقليد . فلما اخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت افكارها نصلت عقول الاوروپيين من علة الغباوة والبلادة ثم تحركت فى مداراتها الفكرية وترددت فى المجالات العلمية وكدحت لاستحصال اسباب المدنية .

ان الدين الاسلامى يكاد يكون متفرداً من بين الاديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين ان يأخذوا بالبرهان فى اصول دينهم وكلما خاطب العقل وكلما حاكم الى العقل ، تنطق نصوصه بان السعادة من نتائج العقل والبصيرة وان الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع اركان الحجة لأصول من العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الاغلب « راجع القرآن الشريف » .

وقلما يوجد من الاديان ما يساويه او يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الاديان الظاهرة ما بنى اعظم اركانه على اصل الكثرة فى الواحد او الوحدة فى الكثير وان الواحد يكون اكثر والكثير يكون واحداً مما تنبذه بداهة العقل . فلما انكر العقل اصل هذا اجمع اهل الدين على انه فوق نظر العقل فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدى لدليل عليه ولا مرشد اليه . يريدون انه لابد من تنكب طريق العقل ونبذ احكامه حتى يمكن الايمان بهذا الاصل . مع ان العقل مشرق الايمان فمن تحول عنه فقد دابر الايمان وان فرقا بين ما لا يصل العقل الى كنهه لكنه يعرفه بأثره وبين ما يحكم العقل باستحالته . فالاول معروف عند العقل يقرّ بوجوده ويقف دون سرادقات عزته ، اما الثانى فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ! اما اصول دين «برهما» فمن البين لكل ناظر فيها ان اغلبها مخالف لصريح العقل وذلك من جليات المسائل سواء اعترف اهل هذا الدين بثبوته او كابروا بانكاره .

الامر الرابع — ان يكون فى كل امة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الامة لا ينون فى تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الصافية ولا يألون جهداً فى تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم فى جوادّها . ثم طائفة اخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف اودها وتكشف عن الاوصاف الفاضلة وحدودها وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها وتفضح مستور الرذائل وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها

وتشتد فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا تلهيها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة .

وذلك ان بداهة العقل حاكمة بان جلّ المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة . فان لم يكن فى الناس معلم قصرت العقول عن درك ماينبغى لها دركه وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسدّ ضرورات الحياة الاولى والاستعداد لما يكون فى الاخرى وساوى الانسان فى معيشته سائر الحيوانات وحرم سعادة الدارين وفارق هذه الدنيا على اتعس الاحوال . فاذن من الواجب الدينى اقامة معلم . والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حدّ تقف عنده ولا لرغائب الانفس غاية تنقطع عندها ، فان فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الاخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع الى الحيف والاجحاف . ومن طغت بهم شهوتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا ستر امتهم ثم هم لا ينفلتون من غائلة اعمالهم بل يحترقون بنيران شهواتهم فيرافقون الدنيا على عناء ويفارقونها الى شقاء . فاذن لا بدّ من الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر القائم بتقويم الاخلاق . وان من اهمّ الاركان الدينية فى الديانة الاسلامية هاتين الفريضتين : نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، واقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر (راجع القرآن الشريف) — « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وغير هذه الآية آيات كثيرة : « فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وسواها آيات . وقد برز دين الاسلام على غالب الاديان فى

العناية بهذين الامرين .

وحيث كانت اركان الدين الاسلامي بالغة حدّ الكثرة فلو أخذت في بيان مايفيده كل ركن منها في تقويم المدنية وتشييد بناء النظام الانساني واقامة الدليل على ان كل اصل من اصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة .

ولهذا أخذت ان أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها ان المدنية الفاضلة التي بات الحكماء على حسرة من فقدها لا تختط في العالم الانساني الا بالدين الاسلامي .

فان قال قائل ان كانت الديانة الاسلامية على مابينت فما بال المسلمين على مانرى من الحال السيئة والشأن المحزن ، فجوابه ان المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم . واكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .



الدين الاسلامي او الاسلام *

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وانى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر ان يفصلوه ، وما سندى فيما اقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين :

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وافعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الادلة على ان للكون خالقاً واحداً متصفاً بمادلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى انه لا يشبهه شيء من خلقه وان لا نسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم وانهم له واليه راجعون : « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد » وما ورد من الفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها

---

* راجع (رسالة التوحيد) للاستاذ العالم العامل العلامة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وتطلب من دار الترقي وثمن النسخة خمسة قروش صاغ غير البريد

له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها ان تبرز فى جسد أو روح احد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد ان يساطه عليه من الاعمال على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الازلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل ان يعترف لأحد بشىء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً او وجوب ان الكل اعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء كغيرهم بانهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وغاية امرهم انهم عباد مكرمون وان ما يجريه على ايديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا الا ببرهان كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف انه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله .

دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة ؛ فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها او عليها . واما ما تحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه انفسنا بسلطان يقهرها او ناصر يمدها فيما ادركها العجز عنه ، على انه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة

به ، فذلك انما يرد الى الله وحده . فلا يجوز ان تخشع الا له ولا ان تطمئن الا اليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لايسوغ لها ان تلجأ الى احد غير الله فى قبول اعمالها من الطيبات ولا فى غفران افاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل او العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة . تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث اصبح لا يخضع لأحد الا لخالق السموات والارض وقاهر الناس اجمعين ، وابيح لكل احد بل فرض عليه ان يقول كما قال ابراهيم : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » وكما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول : « ان صلاتى ونسكي ومحياي ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا اوّل المسلمين . »

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة واطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية او انها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من اسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء

السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على اعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين انهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد ، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين . صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ماسواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت اعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقرّبهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . ثم بهذا خلصت اموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها ايدى العالة واهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» «وان ليس للانسان الا ماسعى» واباح لكل احد ان يتناول من من الطيبات ماشاء اكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه او بمن يدخل فى ولايته او ما تعدّى ضرره الى غيره ، وحدّد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقاً محترما تصطدم به .

انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة فى المدارك ونسفت

ما كان له من دعائم واركان فى عقائد الامم . صاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ اليه شعاع من نورالحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم : « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة . » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدى بالعلم والاعلام ، اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون .

صرّح فى وصف اهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فانزلهم من مستوٍ كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت انظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على ان السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لاذهان على اذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب

السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم : « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب .

عاب ارباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى اوروبا انما قامت على هذين الاصلين . فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد ان عرف العدد الكثير انفسهم وان لهم حقاً فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من اهله فى تلك الازمان .

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر

على عقول المتدينينَ في فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو اباحوا لهم ان يقرؤا قطعاً من تلك الكتب ، لكن على شريطة ان لا يفهموها ولا ان يطيلوا انظارهم الى ما ترمى اليه . ثم غالوا فى ذلك فحرموا انفسهم ايضاً مزية الفهم الا قليلاً ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وإن هم الا يظنون » « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » اما الامانى ففسرت بالقراآت والتلاوات اى لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا انهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما اودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً ، واذا عنّ لاحدهم ان يبين شيئاً من احكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » اما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهى بين ايديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن اعينهم اعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك

المثل الذى اظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية ان تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس : وما اشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سبباً فى اسعادهم وهو التنزيل والشريعة اصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز .

فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما اودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات .

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلاً فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك انهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله اقوى سبب . انكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الازمان وعلى السن جميع الانبياء واحد . قال الله : « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله

ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الورقات .
والآيات الكريمة التى تعيب على اهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على ان دين الله فى جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى انزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة فى مراشدهم اخواناً بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

اما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل امة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الاشخاص من خارج من بطن امه لا يعلم شيئاً الى راشد فى عقله كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل اسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب

هديه فى تربية الامم . فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه ان يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته فى النمو قائماً على ماقررته الفطرية الالهية فى شأن افراده . وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف اهل النظر فى بيان ماتفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا .

جاءت اديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور اشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ماوقع تحت حسه ويصعب عليه ان يضع الميزان بين يومه وأمسه وان يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره او ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره اللهم الا يداً تصل الى فمه بطعام او تسنده فى قعود او قيام . فلم يكن من حكمة تلك الاديان ان تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان او يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة ان تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل مايحسه بسمعه او ببصره ، فاخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك ازمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الايام آلاماً ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياما ، ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وادخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء او تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ان لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الاغنياء وما نحو نحو ذلك مما هو معروف . وسنّ للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه ، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما اصلح من فاسدها وداوى من أمراضها . ثم لم يمض عليه بضعة اجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ باقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهبّ القائمون عليه انفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة اهل الترف فى جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادّته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل . هذا كان شأنهم فى السجايا والاعمال ، نسوا اطهارته وباعوا نزاهته . أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً واحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من اصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من اقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الاكوان والحظر على الافكار ان تنفذ الى

شيء من سرائر الخلقة فصرّحوا بان لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم . ولم يكف الذاهب الى ذلك ان يأخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وافضى الغلو فى ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين اهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأصل وتخرّمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك الى ان جاء الاسلام .

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان اشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على ان دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح ، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب . وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره . ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعدّ كلا الأمرين طهراً مطلوباً . وجعل روح العبادة الاخلاص وان مافرض من الاعمال انما هو لما اوجب من التطبع بصالح الملكات : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً الاّ المصلين » ورفع الغنىّ الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه . وعامل الانسان

فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع
قواه الظاهرة والباطنة . وصرح بما لا يقبل التأويل ان فى ذلك رضا الله
وشكر نعمته وان الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى
في صلاح الدنيا .

التفت الى اهل العناد فقال لهم : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »
وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من اصول اليقين ،
ونص على ان التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين . ولم يقف في ذلك
عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها
فى العمل فاباح للمسلم ان يتزوج من اهل الكتاب وسوَّغ مؤاكلتهم واوصى
ان تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن . ومن المعلوم ان المحاسنة هى رسول
المحبة وعقد الألفة والمصاهرة انما تكون بعد التحابّ بين اهل الزوجين
والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . ثم اخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا
عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن انفسهم . ونص على ان لهم
ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيداً يقدمونه من مالهم ،
ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله :
« يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » فعليهم
الدعوة الى الخير بالتى هى احسن وليس لهم ولا عليهم ان يستعملوا اى ضرب
من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام فان نوره جدير ان يخترق القلوب .
وليست الآية فى الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام
به ولو اريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه » لا « عليكم

انفسكم » كما هو ظاهر لكل عربي : كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ اعلى درجات الكمال الذى اعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتنحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على اصناف زعموا انها لن تبلغ من الشأن ان تلحق غبارهم — فأماتوا بذلك الارواح فى معظم الامم وصيروا اكثر الشعوب هيا كل واشباحاً .

هذه عبادات الاسلام على مافى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة . فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات او رمى الجمرات . على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير . اما الصوم فحرمان يعظم به امر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . اما اعمال الحج

فتذكير للانسان باوّليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين افراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف. ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو ابو الدين وهو الذي سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على ان لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر اوينفع، وشعار هذا الاذعان الكريم في كل عمل «الله اكبر» اين هذا كله مما تجد في عبادات اقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد.

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الانسان) فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم انما يجرى امرها على السنن الالهية التي قدرها الله في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية. غير انه لا يجوز ان يغفل شأن الله فيها بل ينبغي ان يحيي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت احد ولا لحياته، فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» وفيه التصريح بان جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضي فيه الا العناية الازلية على السنن التي اقامته عليها. ثم اماط اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص او الامم والمصائب التي يرزأون بها ففصل بين الامرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما. فاما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه

الحياة والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف . والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج او طاعة وعصيان . وكثيراً ما امهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم حتى يتلقاهم ما أعدلهم من العذاب المقيم فى الحياة الاخرى . وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده واثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم « انا لله وانا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي فى مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

أما شأن الامم فليس على ذلك . فان الروح الذى اودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل امر من بابه وطلب كل رغيبة من اسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من اصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة : « من يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته

وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين او العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون : « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » امرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا ان يلجأوا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وما اجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً .

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك فى قوله « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم

البينات واؤلئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين . ولله ما فى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور » . ثم بعد هـذا الوعيد الذى يزعج المفرطين وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ابرز حال الامارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى اجلّ مظهر يمكن ان تظهر فيه حال امة فقال : « كنتم خير امة أُخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه اعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها افنان الخير تشريفاً لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على انها حفاظ الايمان وملاك أمره . ثم شد بالانكار على قوم اغفلوها واهل دين اهملوها فقال : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون : كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه .

فرض الاسلام للفقراء فى اموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين سدًّا لحاجة المعدم وتفريجاً لكربة الغارم وتحريراً لرقاب المستعبدين وتيسيراً لابناء السبيل ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى

الصراط المستقيم . فاستلّ بذلك ضغائن اهل الفاقة ومحص صدورهم من الأحقاد وعلى من فضلهم الله عليهم فى الرزق . وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلآء وساق الرحمة فى نفوس هؤلآء على اؤلئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس اجمعين : وأى دواء لأمراض الاجتماع انجع من هذا : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . »

اغلق الاسلام بابى الشر وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لاهوادة فيه . لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصلاً من اصول الفضائل الا اتى عليه ولا اماً من امهات الصالحات الا احياها ولاقاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل السعي . ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تفنى . هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا ، قد تبين الرشد من الغي ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته ايدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين . لهذا ختمت النبوات بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى ان لاسبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع او يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : « ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما . »

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك . لكن يندهش عقل الناظر فى احوال البشر عند ما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من ادناها الى اقصاها فى اقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى اقل من قرن واحد : وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم اشد ما يلقى حق من باطل . اوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء واقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة . غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس اهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجري

من مناخرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على ايدى الاطباء الحاذقين :
« ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون . »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا انه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة . وقد وطئ ارض الجزيرة اقوام من اديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً ولا أنالهم القهر فلاحاً .

ضم الاسلام كان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بامر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزأوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر واخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلباً للامن وابلاغاً للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال اهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب اوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون

منه اهلهم واموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة . وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً واحساناً عند ما كان يعدّها الاوروپيون ضعة وضعفاً .

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى اربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم . بلغ امر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد انه اسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا . وصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة . عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض اهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا

بهم الى اعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسپانيا .
اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوروپا فراراً منها
بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم
يفعلوا شيئاً سوى انهم حملوا الى اولئك الاقوام كتاب الله وشريعته والقوا
بذلك بين ايديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة
ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئاً من القوة . وما كان من الجزية لم يكن
مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه . فما الذى اقبل باهل الاديان المختلفة على
الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا
فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم !

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات
الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره
بسكانها على الجادّة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة ان ذلك
هو وعد الله لنبييه ابراهيم واسماعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به
الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على
العناد فى مجاحدته فتقلوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

اوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه
فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة : لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد
الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية
فى قبول المصالح والمرافق . رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من

اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزت شهوة او غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة .

تبدّت لهم سذاجة الدين عند ما قرأوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه .

كانت الامم تطلب عقلاً فى دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها ؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشؤون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوّغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير - وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً - فلما عقد العزيمة على اخذه مع دفع اضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد امره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم

مثل علي بن أبي طالب — وهو من نعلم من هو — أمام القاضى ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما : هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه وردّ اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل . فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ماالفته من اللين والمياسرة . ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى افريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه ، لا سيف وراءها ولا داعى امامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر احكامه وعدالة شريعته . وبالجملة لان فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها واقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة . ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه .

هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى انشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض اطراف الارض الى اليوم .

قال من لم يفهم ما قدمناه او لم يرد ان يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته : سبحانك هذا بهتان عظيم .

ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله . وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن انفسهم وكفاً للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم . فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدداً كل امة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها . وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى اقل من قرن . هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة

تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين : ان فى ذلك لآيات للمستيقنين .

جاءت حكمة الله فى امر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية . فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية . علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر اهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها . زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغى قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعاً الى ارض جدبة ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الاسلام على الديار التى بلغها اهله فلم يكن بين اهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله ويفقهوه . اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين ازماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراء . لكن الله بالغ امره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث اعقابهم ان اتخذوا الاسلام ديناً وحملوه الى اقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم : جاؤا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب

من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين اكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق او يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية . جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين . استقر المقام بكثير من هؤلاء فى ارض المسلمين وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى احوال المجاورين وتلتقط من افكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع . فتبينت أن المبالغات التى اطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة . ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاءالله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها . هذا الى ما كسبه السفار من اطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وادبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا واخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى

تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه
وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت
طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى
اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلاً ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح
فى العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد
صلى الله عليه وسلم : وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف
معنى الا فى صورة العبادة لا غير .

ثم اخذت أمم اوروبا تفتكّ من أسرها وتصلح من شؤونها حتى
استقامت امور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية
عن مرشدها وتقررت اصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الاجيال
المتأخرة ما سبقها من اهل الازمان الغابرة . هذا طل من وابله اصاب
ارضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . جاء القوم ليبيدوا
فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . ظن الرؤساء ان فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم
وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم . وما بيناه فى شأن
الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من اهل النظر فى بلاد
الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان أكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى
الله عاقبة الامور .

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون : اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

اذا كان الاسلام موحداً ، فما بال المسلمين عدّدوا ؟

اذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والارض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد ؟

اذا كان اول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر فى الاكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم اغلق على نفسه باب العلم ظناً منه انه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما ابدع من محكم الصنع ؟ ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة اصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد ان كانوا قدوة فى الجد والعمل أصبحوا مثلا فى القعود

والكسل ؟ ماهذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟

اذا كان الاسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟

اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه ، فما بال قراء القرآن لا يقرأونه الا تغنياً ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنياً ؟

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوهما الى اغلال اى اغلال ؟

اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قروناً في استعباد الاحرار ؟

اذا كان الاسلام يعد من اركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من اهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟

اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن ؟

اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وانهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه والقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذاً وصاروا فى اعمالهم افراداً لا يحس احدهم بما يكون من عمل اخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه وشيجة ؟ ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الامهات ؟ اين وشائج الرحمة ؟ اين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذى فرض فى اموال الاغنياء للفقراء وقد اصبح الاغنياء يسلبون ما بقى فى ايدى اهل البأساء ؟

قبس من الاسلام اضاء الغرب كما تقول وضوؤه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق واهله فى ظلمات لا يبصرون . أصح هذا فى عقل او عهد فى نقل ؟ ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم من اهل هذا الدين اول ما يعلق بأوهام اكثرهم ان عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا انفسهم احرار الافكار وبعداء الانظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح اوراق من كتبه ووسموا انفسهم بانهم حفاظ احكامه والقوّام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ويرون العمل فيها عبثاً فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دنيئة ؟ فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين

الناس . ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة : أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس جمعين على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة اجيال وربما كان ما جاء فى الايراد قليلاً من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من اهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات . ولكن قد اتيت فى خاصة الدين الاسـلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التـدقيق فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه اولئك الذين انزل فيهم وعمـل به بينهم . ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل اثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم : فذلك هو الاسلام .

وقد اسلفنا ان الدين هدى وعقل . من احسن فى استعماله والاخذ بما ارشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الاعمى انكاراً ولا الاصم اعراضاً . وغاية ما قيـل فى الايراد ان اعطى الطبيب

الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله . وكثير ممن يعودونه او يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت او تبدل سنة الله فى شفاء امثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الاسلامي وحاله على ما بيننا . اما المسلمون وقد اصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر ان شاء الله .



نظرة[1]

على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا فى فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التى انبنى عليها كل مانراه من الترقى فى العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسية على انها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرائى انها مستمدة منه ومأخوذة عنه . وبرهنا ضمن ذلك على ان هذه الاسس الاسلامية لا يحتمل ان يعتريها التبدبل او يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل فى العالم وكل خطوة تخطوها العقول فى سبيل الكمال ليس هو الا تقربا الى الاسلام وانه سينتهى الامر يوماً ما باجماع كافة عقلاء البشر على اعتبار الاسلام ناموساً عاماً للسعادتين وضامناً لراحة الحياتين .

نعم الاسلام هو الدين العام الباقى بقاء الانام والقانون الذي تلمسته الفلاسفة الاعلام منذ الوف من الاعوام . اهتم عقلاء الامم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقة بين اميالهما بطريقة تمنع تسلط احدهما على الآخر . اهتموا بهذا الامر

---

(١) من كتاب « المدنية والاسلام » لحضرة الباحث المحقق محمد أفندى فريد وجدي — ويطلب من مكتبة الترقى بخمسة قروش صاغ واجرة البريد قرش

وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بان الانسان المركب من نفس وجسم اذا لم يراع تمام الاعتدال فى مطالب هذين الجوهرين وقع فى الافراط فى مطالب احدهما ومتى حصل له ذلك اخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه فى تيار شديد القوى لا يسرع به الا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه أو عضواً مشلولاً فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل اسطع ولا بعد حوادث التاريخ برهان اقطع على ان كل المذاهب التى لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الامم التى تسود عليها الى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آماداً مستطيلة حتى يسود احد أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقة ولم يجد امامه مقاوماً يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه الافراط فى احد نوعى مطالب الانسان ولم يلبث ان تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبراً على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالامس . ومن يتصفح تاريخ الامم ير بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه الى بحث طويل .

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على افكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقاً عادلاً ويربط صلاح احدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة . وقد اثبتنا فى فصولنا المتقدمة ان النفس عرضة للامراض المختلفة وللشفاء منها كما هي حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان الرجل لا يستطيع ان يحمى جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة الا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب ان يكون

هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع ان يمنع
نفسه من غوائل الامراض المعنوية القتالة . ولما كان هذان الجوهران
المركبان للانسان موضوعين بطريقة بها يتأثر احدهما بمرض الآخر وجب
ان يكون ذانك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا
يكون فى السير على احدهما اضرار بالآخر . هذه الحقيقة اصبحت فى هذا
القرن خصوصاً من البدائه التى لا يمترى فيها لان حالة الوجود كله شاهدة
بصحتها . وهذه الحقيقة نفسها هي التى بعثت خاصة علماء اوروبا الى تأليف
ديانة سموها الديانة الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البدائه العلمية والحقائق
الفلسفية ونحن نستحسن ان نأتى فى هذه العجالة على اهم قواعدها مترجمة
من كتاب (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو
قال : « قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات
واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى . والاعتقاد
بوجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة فى هذا
الجسم المادى أمداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هـذا
الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة
الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس . ووضع الحرية
الاخلاقيـة التى هي ينبوع واصل كل الحريات الاخرى تحت سيطرة
الاعتدال الكلي . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان
والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقى وهو التخليص التدريجي للنفس من
علائق الجسم . والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقي

ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة . »

لا شك ان كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفى قواعد هذه الديانة الطبيعية ير بعينيه ان الاسلام هو تلك الأمنية التى تحسسها الفلاسفة وتلمسوها فى سائر ابحاثهم العلمية من قديم الزمان الى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التى يخطوها النوع البشرى بين كل هذه القلاقل الاجتماعية فى سبيل الرقى والتدرج متقرباً كل يوم من قواعد الدين الاسلامي على غير علم من افراده ويتأكد ان الاسلام هو الغاية القصوى التى وضعها الخالق جل شأنه امام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره وأفاعيله فى تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . »

من هنا أيضاً يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذى حصل فى الأُمة العربية فجعلها خير امة أخرجت للناس بعد ان كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان .

فلنبحث فى حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التى انهكت قواهم من منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الاسف رأينا أكثرهم أغضى كل الاغضاء عن ذات العلة واخذ يجهد نفسه فى مداواة الاعراض المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته ما دام سبب المرض

لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعي فى جسم الهيئة الاجتماعية الاسلامية . اما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذى لم ينتج فائدة ما بل نريد ان نثقب أغلفة ادواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله الى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول :

لا يخفى على كل انسان ان مدنية المسلمين التى تكونت جرثومتها فى جزيرة العرب فتفرعت افنانها فى مدة قصيرة الامد على اكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الاسلامية . ويتمكن كل انسان باستقراء التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على ان هذه المدنية كانت اسرع المدنيات سيراً واكثرها بهجة وأوسعها بقاعاً وأعجبها منبتاً واقواها امتلاكاً لأزمة ذويها وتاثيراً على اذهان متبعيها . وانها كانت جامعة لناموسى كل السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل .

هذه امور يهديها النظر المجرد فى تاريخ المسلمين فى مبتدإ امرهم ولكننا الآن لو اجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلامية فلا نرى الا عكس ما كان عليه آباؤنا الاول : نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى وآخذة فى محو أهميتنا شيئاً فشيئاً مع ان كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك مصداق لقول متطرفى فلاسفة هذا العصر من ان شأن الديانات عموماً تقييد الانسان عن الرقى ومنع النفوس عن التدرج فى معارج الكمال ؟ كلا . فان اقل نظرة فى حالة العرب فى جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم فى مدنيتهم

وسرعة رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . اذن هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدنة للامم ومرقية لشأنها فى عصر من العصور لم تخل من ان تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقى فى المستقبل لمضادتها لسنة الازمنة والمناسبات ؟ كلا . فانا درسنا أهم نواميس الاسلام فى كتابنا هذا درساً مدققاً فلم نره الا مطابقاً لقوانين الحياة البشرية ملائماً لقواعدها ورأينا رأى العين انه لم يصنع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المتشرعون الاول جهلاً منهم بسنن الحياة المستقبلة وأطلق كل خصائص النفس من أغلالها الاولى وترك اليها اعنتها ولكن بعد ان نقلها الى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا ننتظر ان يأتى زمان يقال فيه ان الاعتدال مذموم وان المحمود هو الافراط أو التفريط . اذن ما هو السبب فى تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم فى عشر فضائلهم ؟ اما نحن فلا نجد السبب الا فى هذا الامر المهم الا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل :

انا قد برهنا فى فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واحوال الجمعية الاسلامية الاولى على ان غرض الاسلام الاول هو ترقية شأن الانسان مادياً وأدبياً على حسب ناموس الرقي العام الذى استدل عليه باستقراء احوال الانسان وتطوراته ، وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لاداء وظيفتها الا اشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل

للشكوك محلاً فى الاذهان ولا للريب مجالاً فى الوجدان . ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لا يفهم من الاسلام الا انه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات فى الدنيا او نوال الدرجات العلى فى الآخرة ولا يعلمون منه الا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج . واما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التى بعثت الامة العربية من جدث خمالتها الاولى الى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحاً مع انها هى لباب الدين وزبدة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه .

جاء الاسلام موفقاً بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الاخلاقية وبين مطالب الجثمان من الاشياء المادية ليكون متبعه انساناً كاملاً عادلاً بين مطالب طبيعية موفقاً بين أميال جوهرية فيقول الله : « وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه . » ولكن لوى سوادنا الاعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الامم السابقة فى فهم الدين وزعموا انه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم فى ذلك افكار ما انزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك . » فاسدل الناس على هذه القواعد العليا استار النسيان وزعموا

من تلقاء انفسهم ان الدين هو عبارة عن التفرغ الكلى من علائق الدنيا والانفراط المطلق من كل الاميال البدنية . فعلوا كل هذا ولم يعلموا انه السرطان الذى اباد الامم السابقة والطاعون الذى استأصل النحل المتقدمة . ولكن كيف يتأتى لهم ان يعلموا ذلك وهم منزوون فى محالهم جاعلين سدّاً منيعاً بينهم وبين هذه الآية : «افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . »

هذا الفهم السيئ فى معنى الدين ادانا الى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن اصحابه الكرام . فالتقى على حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذى خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له فى الدنيا أقل أمل ، وكان على تمام الجهل باحوال الاواخر والاول ، والذى ان مشى كان على مهل ، وان جلس كان فى عنقه ميل ، وان دعى الى مهمة أورثها الخلل والزلل . هذه هي صفة التقى عند أكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل فى أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم . كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وامثلة الكمال الدينى كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للانام رجال الجد والعمل واهل الشيم والهمم وقادة العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار الا وردوها ولا راية للمجد الا رفعوها حتى اعلوا كلمة الحق على الاباطيل وقوضوا دعائم الجور والاضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت

الجبال لسحقتها سحقاً او لحظت الثريا لمحقتها محقاً. همة يقف امامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد هممهم بجانبها الا عجزاً واقتصاراً. همة عرجت بنفوسهم الى سموات الرفعة عن دنايا الامور وسفاسف الاعمال وعلت بهم عن التدني للفجور وخسائس الاميال. همة كما زادتهم عن الرتوع فى مموه الشهوات بعثتهم الى منازل الكمالات وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم الى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة فى صورة آدميين ونوراً ساطعاً ولو كان غلافه من طين: هـذه هي التقوى التى رسمها الاسلام لمتبعه وخطها لذويه لا مانراه الآن من التقوى التى لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور.

هذا الفهم السيئ فى التقوى الذى اوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم الناس الى قسمين قسم سميناه اهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية او بابحاثهم الفكرية وقسم سميناه اهل الاخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانباً واوقفوا انفسهم على الصلاة والصيام والمشى فى الطرقات خلف الطبول وتحت الاعـلام. وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذى تأصلت جذوره فى العالم الاسلامي من منذ قرون عديدة ان وقف اهل الدنيا انفسهم لتعلم العلوم التى عليها مدار السعادة المادية كما قصر اهل الآخرة انفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية. فصار القسم الأول بهـذا الاعتبار جاهلاً للدين جهلاً يوقعه فى الشكوك والشبهات وصار القسم الثانى جاهلاً للدنيا وامورها جهلاً أداه الى العماية عن سياسة احواله المعاشية فوقع فى العوز الذي أداه الى مدّ يده

واراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف .

هـذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامى من كل وجه ومعارض لاوامره بل ومعطل لاكثرها تعطيلاً .

قلنا فيما سبق ان الاسلام هو الدين العام الذى يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقاً لامحيص منه لمن اراد ان يستقيم على الجادة الحكيمة واثبتنا ذلك بالادلة القاطعة وقلنا ان الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام : « من تبتل فليس منا » وانه جاء لصلاح الدين والدنيا معاً « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة * وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم . » واكدنا بالادلة الناطقة انه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيراً على الاذهان من اقوال فلاسفة هذا الزمان وان الاعمال فى نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرّمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقاً موزوراً وان نوى صالحاً فاخطأ فيه كان مثاباً مأجوراً . قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الاعمال بالنيات . » قال على رضى الله عنه ما معناه : « من أخذ الدنيا بما فيها واراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد »

قلنا كل هذا أوما يقرب منه فى فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الادلة التى لاتقبل النقض ونزيد هنا تحويل الانظار الى احوال الجمعية الاسلامية الاولى فان افرادها لم يكونوا منقسمين الى قسمين قسم دنيوى وآخر اخروى . بل يروى لنا التاريخ انهـم كانوا كلهـم يداً واحدة فى العمل

للدين والدنيا معاً فان أبا بكر وهو اول المسلمين كان تاجراً ولم يبطل مهنته الا حين تبوأ عرش الخلافة . وروى الامام احمد بن حنبل ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . ولقي أبو قلابة رضى الله عنه صديقاً له فى المسجد فقال له : « لان اراك تطلب معاشك خير من أن اراك فى زاوية المسجد . » وكان عمر رضى الله عنه يقول: « ما من موضع يأتيني الموت فيه احب الىّ من موطن أتسوق فيه لاهلى ابيع واشترى . » ذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للأُخرى فكان يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأَنك تموت غداً . » ويقول : «احرثوا فان الحرث مبارك . » ويقول : « اطلبوا الرزق فى خبايا الارض . » ويقول : « تسعة اعشار الرزق فى التجارة . » ويقول : « العبادة عشرة اجزاء تسعة منها فى طلب الحلال . »

هذه هى نصوص الديانة الاسلامية واحوال جمعيتها الاولية فى عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذى حمى المسلمين فى مبدإ امرهم من الانقسام الى حزب دينى وحزب دنيوى وهو الامر الذى يوجد التخالف بين نزعات الامة وينشىء التناقض فى أغراضها فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغماً عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الامر الى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطماً يفضى بالجمعية الى الفوضى الفكرية . ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الاساسية التى تربط اجزاء الامة بعضهم

ببعض واخذوا بشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم فى مستقبلهم . فاذا انتهى حال الامة الى هـذه الدرجة اخذ القسمان الدينى والدنيوى يتبادلان القاء المسؤلية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارىء الى تمادى الكافة فى شهواتهم البهيمية ويعزوه الدنيويون الى تقصير اساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزغات ذوى الاهواء ويستمرون فى هذه الملاجة الفارغة بينما تكون جراثيم الفساد آخذة فى التفشى والانتشار جارفة الامة امامها الى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هى حالة الامة الاسلامية فانها بعد ان طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الاولى فاوقعها فيما وقعت فيـه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين اهلهما اخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقي التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم اكثر الاجيال شعوراً بضرورة فضائل الاسـلام لبناء ماتهدم من مجدنا واشدها تقريعاً لعلمائنا فى تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر . نعم اننا لنشعر بتهيؤ النفوس الى انتشاق نسمات الكمالات الاسلامية المنعشة لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقى الذى قد عم وطم وساق النشأة الحديثة الى نقطة فقدت فيه الاحساس الا بالدنايا والادناس . نعم انا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة ، الا اننا نستميح من قرائنا الحرية لاجل ان نقول ان ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية . فكأنى بالناس يريدون ان تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الاسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على اسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الامل او يجعله ممكناً . بل

كأني بهم يرون ان تلك الفضائل لا يمكن تأتيها الا بواسطة رجال يلبسون شكلا خاصاً من الالبسة او يقرأون كتباً مخصوصة فى العلوم .

كلا . فانا ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود فى دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل الاسلامية التى كان يفهمها الاعرابى الحلوى فى مدة قصيرة لا تعسر مطلقاً على نشأة هذه الامة المهذبة :

أسس الاسلام لا تحتاج لاجل ان تنفذ الى العقول الى جدال او الى تمهيد بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه . فان كان الرجل عالماً بحقائق الكون وأراد ان يفسر سر تلك الطمأنينة التى سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه الا ان يتدبر فى اسرار الخلق وفى تكاليف الحياة البشرية وفى النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون بأسره وفى الغرض الذي يسعى اليه الانسان رغماً عنه ليرى بعينيه عياناً ان تلك الاسس الاسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هي المحجة الوحيدة التى توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه واخراه . وانها هي نفس المحجة التى خلق الانسان مطبوعاً على تلمسها رغماً عنه والتى يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون فى تذليل كل الصعوبات للوصول اليها .

اذا كان هذا شأن اسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا نتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكي من قصور المرشدين عن ابانتها مع

انها مبسوطة بأصرح عبارة وأرق اشارة فى القرآن الشريف وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح ؟ هل يظن المسلمون ان الله تعالى لم ينزل القرآن الا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سرداً وبدون تعقل على رؤوس القبور وفى اوساط الطرقات أو ليتلى بألحان الغناء فى ليالى الافراح بين لغط النرجيلات ودخان السجارات ؟ ام هل يظنون ان احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح ان تتلى الا لقضاء الحوائج وحصول البركات فى المنازل ؟ ليعلم المسلمون ان كل هذه الامور تنافى الاسلام وتساعد على استجلاب سخط رب الاسلام .

ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة واحاديث رسول الله وهي خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها فى الطروس ونشرها بين سائر طبقات الامة الا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادتين ومساك الحياتين وفى تاريخ المسلمين اكبر حجة على قولنا هذا . ها نحن شعرنا بالحاجة الى كمالات الاسلام فما بالنا قعود عن اخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته « ولا نكلف نفساً الا وسعها . »

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء امام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى افواههم بدون مد ايديهم ؟

أليس من العار الشائن ان نصرف كل أوقاتنا فى مطالعة روايات (إميل زولا) و (پول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذى جمع بين دفتيه اسرار هذا الوجود بأسره ؟

أندعى التمدن والتنور ونميل للتشبه بالمتمدنين فى الجري وراء اكتشاف

مساتير الكون ونرمى القاعدين منا بالخمول والموت الفكرى ونحنى رؤوسنا اعجاباً بنظريات (سپينسر) فى العمران و (جمبتا) و (تيبروس) فى السياسة و (ريبوا) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذي لو أفنى علماء العالم كله اعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا الى جزء منها .

لعلنا نخجل من الاشتغال بالامور الدينية تقليداً لغيرنا خشية من ان نتهم بالقصور العقلى ! ان كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه احالة نظرنا قليلاً فى كتابنا السماوى لنرى أن الاسلام ليس بالدين الذى يأمر بالانزواء والاستكانة او بالتعصب مع الانغماس فى المهانة أو باضناء الجسم فى العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذى يأمر بالكد والعمل ويحبب للانسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه الى الفضائل والشيم . كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها الا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فالمتكلم فى الاسلام والحالة هذه لا يكون مردداً لافكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقاً عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعتريها خلل ولا يعتورها زلل . بأسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بانوار تنفذ الى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمساً لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لانها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة . تداوى جراح الافئدة مما اصابها

من سهام الحوادث وتضمد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين اوهامها وتطهرها من غاشيات احلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه الى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لان تطل على الملكوت الاعلى وتنال منه زبد العلم الاجلى .

ألا تنظر الى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل اشراق الاسلام عليهم ثم الى مصيرهم بعده ؟ ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابنته الى الفلاة وهى على ذراعه فيحفر لها حفرة وهى تنظر اليه وتحنو بفؤادها عليه فلا يجد فى نفسه فؤاداً يحن عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب الى اهله فرحاً مسروراً كأنه لم يفعل الا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة . تدبر بعيشك الى هذه القلوب القاسية والاحساسات العاتية ثم انظر اليهم بعد اعتناقهم للاسلام ترى ماذا ؟ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربى فى مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة . ترى أمثلة للشهامة والفضيلة واساطين للسجايا الجليلة والاخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الاخلاق بمثالهم ومقالهم قصور ما دونوه فى اسفارهم . ترى اناساً نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقاراً ويفوقون الأكاسرة همة واقتداراً . انظر الى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه فى زمن الجاهلية والى ماذا آل امره بعد ان اسلم ببضع وعشرين سنة : آل أمره الى ادراك حكمة وسياسة وثبات اعزّ بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم مما يقصر عنه أكبر ملك تربى فى مهاد التشريع

ويكبو دونه أعظم فيلسوف ولد فى حجر الحكمة والسياسة . وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لاجلها اياماً عديدة . فكأنّ المتنبى عناه بهذا البيت :

قسا فالاسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

من أين حصل له هذا وبما ذا ناله ؟ هل درس الاخلاق فى مدارسها الكلية او علم العمران فى المجامع العلمية او السياسة على المنابر البرلمانية او التشريع فى المدارس الحقوقية ؟ — كلا . لا شيء من ذلك ولكنه كان يتلو القرآن واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما .

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلاً لترى بعينيك سلطة الدين الاسلامى فى احالة الطباع وسرعة تأثيره فى تغيير اتجاه النزعات وفى تنوير اذهان ابنائه ومتبعيه .

فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها او اخلاق نتصف بها ونقتنع بعد اخفاق المسعى بان نلقي تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسيء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القبور والمدافن يتلوهما رجال لا اخلاق لهم من العلم ؟ هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول « واتخذوا القرآن عضدين فوربك لنسئلنهم اجمعين . »

خلاصة القول ان دواء المسلمين الوحيد هو ان يفهموا معنى الاسلام ويدركوا ان غرضه الاول هو ترقية حالتى الانسان المادية والادبية معاً

لارتباطهما ببعضهما ارتباطاً كلياً لاجل ان تستطيع النفس ان تعرج الى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجاً سريعاً . وان يفقهوا ان لفظة عبادة فى الاسلام لا تعنى العبادة الجسمية من ركوع وسجود فقط بل ان كل مايفعله الانسان مريداً به امراً ينبنى عليه اصلاح لذاته او لعائلته او لجمعيته او لبنى نوعه او للكائنات كلها هو فى نظر الاسلام من احسن انواع العبادة واشرف اشكال الطاعة لله عز وجل : « ان المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته * والشاة ان رحمتها يرحمك الله . » حديثان شريفان . وان يدركوا ان الاسلام لا يعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب اليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها : هذه الاسس الاسلامية تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية والوف من الاحاديث النبوية واحوال الجمعية الاسلامية الاولية حتى ان المرشد المتنور ليستطيع ان ينقشها فى مخيلة تلميذه فى درس واحد .

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها الا كرور الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لنشرها .

وانا نختتم مقالنا هذا برفع أكف الرجاء الى الله عز وجل ان يهدينا الى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وان يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم وان يحسن خواتمنا اجمعين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليماً كثيراً .

موءتمر التربية الاسلامي

(فى كلكتا)

اشرنا فى المؤيد منذ شهر الى ان اخواننا فى الهند عازمون على عقد مؤتمرهم الخاص بالتربية فى مدينة كلكتا عاصمة البلاد الهندية . وقد جاءتنا الجرائد الهندية امس وكلها ملآى بمباحث المؤتمر والخطب العديدة التى القيت فيه حتي اضطر معظم الجرائد الاسلامية الى اصدار ملاحق خاصة بها وجريدة (مسلم كرونكل) الشهيرة التى تصدر فى الاسبوع مرتين صارت تصدر يومياً في حجمها المعتاد

ولعمر الحق ان نطاق المؤيد ليضيق عن نشر مفصلات هذا المؤتمر وماتناول من مباحث اخواننا المسلمين الذين تتألم نفوسهم وتشعر عواطفهم بضرورة العمل لايجاد نشأة اسلامية تنهض بالمسلمين من الوهدة التى سقطوا فيها بجهلهم وخمولهم . بل اننا لوحاولنا نشر مظاهر السرور التى كانت تبدو على وجوه المسلمين فى ذلك اليوم كما شرحته الجرائد الهندية وهرعهم الى محل الاجتماع حتى صار عدد المجتمعين لايقل فى كل يوم عن الفين من المسلمين كأنما على رؤوسهم الطير كل يحمل في صدره آمالا مملوءها حب التقدم والرفعة لكافة اخوانه . او حاولنا ان نترجم اقوال الخطباء وخصوصاً خطبة رئيس المؤتمر الفاضل القاضى امير على (صاحب المقالة التي نشرت فى مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية عن حقوق النساء في الاسلام كما يعرف ذلك كثيراً من القراء) فانه قد القى خطبة بليغة تستغرق الصحائف العديدة بحث فيها عن حالة مسلمى الهند بنوع خاص واستطرد الى الوسائل التى ترقيهم والتربيه التى

مؤيد ١٨ و٢٢ و٢٣ و ٢٤ يناير سنة ١٩٠٠

تفيد ابناءهم ثم التفت الى المسلمين عموماً فى كافة بقاع الأرض وقارن بين تاريخهم الماضى وتاريخهم الحاضر مما سيراه القراء ملخصاً فى هذه الرسالة . او حاولنا ان ننقل اقوال الخطباء الآخرين لاستلزم ذلك ان يصدر المؤيد فى مائة صحيفة لا فى ثمان : لكن ذلك لايمنعنا من ان نلخص اعمال المؤتمر وننقل للمصريين اهم الموضوعات والعبارات التي تستلفت نظر القارىء وتطوى في ثناياها حقائق تفيد المسلمين معرفتها

وقبل ان نبحث فى اعمال المؤتمر ننشر للقراء خلاصة ما كتبته الجرائد الهندية الاسلامية من عندها على المؤتمر وآراءها فيه . قالت جريدة مسلم كرونكل :

« سيكون يوم ٢٧ ديسمبر سنة ٩٩ نقطة خضراء فى صحراء ذاكرة المسلمين عموماً واهل كلكتا منهم خصوصاً لانه يوم رأى فيه المسلمون بعضهم يكاتف بعضاً والغرض الذى يدفعهم لذلك هو نشر التربية والتعليم بين كافة المسلمين لينهض الشعب الاسلامى فى الهند نهضة الاسد القسور فيعود اليه ماضى حزمه وعزمه . كذلك لا ينسى احداث المؤتمر ينعقد لاول مرة فى كلكتا عاصمة البلاد الهندية وان هذا المؤتمر الذي اسس من سنين عديدة لايزال قويا بهمة مؤسسيه الذين استفادت البلاد من اعمالهم فائدة عظمى . ومتى تصور القارئ ان عدد الحضور فى الجلسات لم يقل عن الالفين فانه يتصور ضرورة النظام الواجب لذلك المقام والاستعدادات التى اهتم اعضاء المؤتمر بشأنها » ثم استطردت الجريدة الى وصف المحل الذي اعد للمؤتمر وهو احدى سرايات اكبر العائلات الاسلامية وأثراها.

وقالت جريدة (بنجاب أبيسر فير) ما يأتى : كان يوم ٢٥ الجارى (ديسمبر) يوما مشهوداً فى محطة (حوره) - محطة السكة الحديدية لكلكتا - كان منظراً مؤثرا فى ذاته سيبقى فى ذاكرة المسلمين الى ماشاء الله . فما كاد

يتبلج نور الصباح حتى هرعت الوفود وازدحمت الاقدام وساد النظام فى المحطة حتى استغرب الامر كثير ممن لم يقفوا على سره وغاية ما توهموه ان هناك حركة جديدة دبت فى نفوس مسلمى البنغال (الجزء الشرقى من الهند) ثم اقبلت القطارات تحمل المسلمين من جميع البقاع الهندية فى ملابسهم الاهلية بين لابس للعمامة المعروفة وبين لابس للطربوش العثمانى وبعد ان التقت وجوه المستقبلين بالقادمين ذهبوا جميعا الى المحل الذى اعد لاجتماع اعضاء المؤتمر . وهذا المؤتمر قد اسس من زمن مديد تحت رعاية وبهمة فقيد الوطن المرحوم السيد احمد خان وبمساعدة المستر (تيودور بك) الصديق الحميم للمسلمين الذى توفى منذ بضعة شهور وانضم له فى ذلك الوقت من كبار المسلمين ما جعل له نهضة عالية لا تزال آثارها باقية لليوم . وممن حضروا فى هذا اليوم الى المحطة من الاعضاء نواب محسن الملك وسردار محمد هيات خان (حامل نيشان الهند) ومولانا نادر احمد والاستاذ شبلى والسيد شاه الدين (دكتور في علم الحقوق) المحامى وشاه زاده سلطان احمد واحمد عبد القادر وصاحب جريدة بنجاب ابسرفير خان بها در بركة الله ونصر الله خان شاه بزاده وغيرهم كثيرون.»

ولنعد الى المؤتمر. قالت جريدة مسلم كرونكل: اجتمع الاعضاء وقام الرئيس وهو العالم الفاضل (القاضى امير على) وألقى الخطاب الآتى:

«ايها السادة : اننى اعتبر الشرف مزيد الشرف فى انتخابكم اياى لرئاسة هذه الجمعية الاسلامية وأومل ان تحملنى ثقتكم بي على تأدية الواجب الذى يدعو كل مسلم الى القيام به وانني اهنيء هذه الجمعية واعضاءها على ما اظهروه

من الثبات فى تأدية العمل الذى كلفوا به انفسهم .اما غاية المؤتمر فانها غير خافية على احد. وكيف تخفى وكلنا يعلم ان القصد من هذا الاجتماع هو العمل لما فيه الصالح العام لجميع مسلمى هذه الديار ؛ ولا يسعنى كذلك الان اعلن استحسانى من اختيار عقد المؤتمر هذه السنة فى مدينة كلكتا لانى ارى انه من الواجب على جماعة صرفوا قلوبهم لخدمة المسلمين ان لا يقصروا اعمالهم على جهة واحدة وان ولاية بنغال بما يتبعها من ولايتى بيها واوريسا تستدعى اهتمام المؤتمر وعنايته

ايها السادة : ان اعمال الرجال الذين سبقونا وصاروا اليوم فى عالم غير هذا العالم لاتزال ناطقة بحسن مساعيهم التي أنتجت تأسيس المدارس التى نراها اليوم زاهية زاهرة تؤدى وظيفتها بكل نجاح وفلاح» . ثم بعد ان شرح الخطيب حالة المدارس الاسلامية الموجودة فى بلاد الهند عطف على التربية اللازمة فقال: « وانى اعتقد تمام الاعتقاد ان التربية التى لا تربى اخلاقا وتكوّن رجالا لافائدة فيها بل لا تسمى تربية . يلزم ان تقصد التربية لتهذيب النفس وترقية مدارك الانسان الوجودية وبعث النظام الحيوى الاجتماعى فى عقول الناشئة وهذا ما لم يتبع فى مدارسنا اليوم الا بعض الاحايين الخصوصية . اجل ان مسلمى الهند هم من سلالة عناصر متنوعة من ممالك مختلفة تجمعهم الرابطة الدينية ويلم شعثهم الاخاء الاسلامي المتين . وقد كان التعليم فى الزمن السابق دينيا محضاً وحبذا لو سار على محور الجمع بين الدين والدنيا فانه قد تطرف فى الاول وأخل اللازم لضرورة الحياة الاجتماعية . وهل تنتظرون من اولادكم وهم رجال المستقبل ان يعملوا

لصالح امتهم وانفسهم الا اذا كانوا فى درجة من التربية الحقة تساعدهم على السعى فى مضمار الحياة الذى حربه المنافسة والمزاحمة؛ لا سبيل لذلك الا بخلع التقاليد القديمة والاوهام التى لم تعدلها قيمة فى الوجود وبأخذ العلوم الغربية والمدنية العصرية مصحوبة بآدابكم الاسلامية ومعتقداتكم الدينية .

اقول العلوم الغربية لانى اعتقد ان النور اليوم يأتى من الغرب بعد ان كان يشرق من الشرق . فقد كان مسيحيو اسبانيا منذ عشرة قرون فى ظلام الجهل فلما دخل العرب بلادهم اخذوا العلوم عنهم وتمسكوا بآدابهم وتربوا على مدنيتهم واليوم كذلك نجد عقلاء هذه البلاد يميلون الى الاخذ من علوم اوروبا ومدنيتها والسير مع الزمان في مضمار الحياة العصرية . ولا انكر ان بعضكم يستدرك على بالانتقاد ان ذلك يستدعى فقد ان الجامعة الملية . فاقول لكم ان ذلك مبحث آخر ولا تفقد الجامعة او تضمحل الا من التفرق والانشقاق الناشئين من الجهل لا من العلم . وان ضرورة احتكاك العناصر ببعضها تستدعى ان يندفع كل عنصر فى تيار المنافسة والا فقد نفوذه وسقط فى هوة التأخر والاضمحلال .

فلنطرح رداء الماضى الميت ولنعمل مع الحاضر الحي فنجمع بين النافع من المدنية الغربية وعلومها وما تستدعيه الروابط الملية القومية لأيامنا فان العالم قد تغيرت احواله تغيرا عظيما من يوم كان العرب اصحاب السيادة والمعارف يعلمون الناس الحكمة والعلوم

المعارف قوة . ومع المعارف ذهبت القوة من الشرق الى الغرب . المعارف ثروة ومع المعارف نزحت الثروة من الشرق الى الغرب . وبالمعارف تمكن

الامم التى فقدت قوتها وثروتها من ان ترد شيئاً من ماضى مجدها وقوتها

نحن اليوم على عتبة باب قرن جديد وأي رجل لا يمتلىء قلبه سروراً كلما تخيل الآمال التى تفتح مجالها امام اعيننا والممكنات التى قد ندركها فى هذا القرن القادم علينا ؟ يجب ان يأمل الناشئون منا ان القرن الذى سمح لهم الدهر بالوجود فى فاتحة ايامه ستكون ايامه نقطة بيضاء لامعة فى تاريخ تقدم افكارنا وارتقاء مداركنا واعمالنا وان يعتقد كل فرد منا ان فى سعيه فائدة ملته وبلاده وانه قد يكون سبباً فى رفع شأن اخوانه وامته . واعتقدوا انكم فى وقت اذا لم تستفيدوا منه ضاعت عليكم الفرص وندمتم حيث لا ينفع الندم . » ثم انتقل الخطيب الى وصف حالة شعوب الهند وصعوبة الحكم فيها ورضي كل فريق الى ان قال :

« ولما كانت البلاد بهذا الخطل فلا ينتظر من الحكومة ان تجعل نظام المدارس على مانحب ونهوى ويكون لمصلحتنا دون سوانا . وعلى ذلك فالنظام الموجود باجماع آراء المسلمين لا يفيدنا فى تعليم ابنائنا وليس فى الامكان ادخال الاصلاح الذى نراه لازماً لنا . والامر بعد التجربة ارى انه يلقى على عاتق المسلمين انفسهم لانهم اولى باصلاح حالهم . ولا خلاف فى ان المسلمين اليوم قد تنبهوا الى ما يلزمهم وعرفوا ان الجهل مضرة كبرى بمستقبلهم وما يتعلق بهم والواجب عليهم اليوم ان يعملوا ويندفعوا فى تيار التنافس ونبذ الشقاق والاختلاف فقد قال الله فى كتابه الكريم « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم »

« الوقف والتربية الدينية العصرية »

بعد ان بين الخطيب لسامعيه ان نجاح المسلمين يتوقف على اعمالهم والاعتماد على انفسهم قال : « نعم اننا نستمد المعونة من الخالق جل وعلا ولكن العمل يجب ان نكلف به انفسنا « وان ليس للانسان اله ماسعي ».

الا ان بعضهم يستدرك علي بقوله (كل ماتقوله نحن نصدق به وان الارادة تملأ صدورنا ولكن كيف السبيل الى ابرازها من حيز الفكر الى حيز القوة ؟ وماهى الوسائط الفعالة لادراك غايتنا؟) فاجاوب على هذا الاعتراض باختصار وايجاز لضيق المقام اذ لدينا عدة نقط مهمة نبحث فيها »

ثم تكلم الخطيب عن المدارس الاسلامية الموجودة الآن فى البلاد الهندية واهمها (مدرسة عليكره) التى اسسها المرحوم السيد احمد خان وأشار الى وسائل الاصلاح فى هذه المدارس وما يلزم لها من التغيير لتكون صالحة لتربية رجال يعتمد عليهم فى رفعة شأن المسلمين ثم انتقل الى الكلام عن الاوقاف فقال ماترجمته بالحرف الواحد :

« لا انكر ايها السادة اننا جئنا فى وقت متأخر لرفع هذه الملة من وهدة الخراب وانه ليس فى امكان احد من البشران يعيد الى العائلات المضمحلة اليوم والتى كانت فى سعادة ونعيم ثروتها وعظمتها. ولكنى اقول ان فى امكاننا ان لايذهب منا ما بقى فى ايدينا حتى نتصور ان يأتى يوم نعيد فيه شيئاً من ماضى عزنا ومجدنا .

ايها السادة الكرام: ان من اهم المسائل الاجتماعية التى لها علاقة بديننا القويم مسئلة تقسيم الميراث بين افراد العائلة . ولكن لما كان هذا التقسيم داعيا الى اضمحلال الثروة والقاء بعض العائلات فى مخالب الفقر (ليتمهل علىّ السامعون فانى استعمل هذا التعبير فى معناه البسيط) كان من قواعد هذا الدين الحنيفي التى هي من العدل والحكمة الالهية البالغة بمكان ان ينص فى الشرع على وقف الثروة وربطها ببعضها بين وقف مقيد وغير مقيد . ولنضرب مثلا بمكتبة فخيمة اعتنى بجمع شوارد كتبها وجواهر كنوزها رجل من المسلمين تتفرق أيدي سبابين ورثته فتفقد الامة مزية وجود هذه المكتبة النافعة لخيرى الدين والدنيا

كذلك تفقد الامة وجود ثروة مجمّعة عظيمة تتلاعب بها ايدى الضياع بعد توزيعها على الورثة ولهذا شرع فى ديننا القويم وقف الثروة على العائلة ومن يتناسل منها . وهذا عمل شريف وواجب ديني لان الشارع قصد بذلك ان تبقى الثروة مجموعة كاملة ينتفع منها أبناء العائلة ومن يتناسل منهم حتي اذا انقرضت العائلة يحول ريع هذا الوقف الى الفقراء او لمقصد خيرى آخر . هذا هو الوقف الذى أدى وظيفة نافعة عظيمة فى جميع الاقطار الاسلامية وكان له نفع عظيم فى البلاد الهندية لم ينقطع الا من زمن قريب .

فيا ايها السادة يتضح لكم ان الاوقاف مصدر ثروة المسلمين وزخيرتهم الثابتة الى اليوم العبوس القمطرير . وبالاوقاف وخيراتها انتشرت العلوم وتقدمت المعارف وساعدت المشتغلين بها من قديم الزمان وسالف العصور والايام . ولكن تغيرت الاحوال ونزحت اوقاف كثير من المسلمين

الى ايدى الغير وتلاعبت بها الايدى واصبح الناس فى اشد الحاجات اليها.
ولا يخفى على افكاركم السامية ان وجود العائلات المثرية حصن منيع دون
هجمات فقر الامة بل من الامور النافعة لنفس الحكومة . ولا ينتظر من
الافراد ان ينظروا الى ثروتهم وثروة عائلتهم بالنظر الذى تنظر به هيئة
عادلة تسعى لخير المسلمين . اذ لا يخفى عليكم مايحتاط بالافراد من العوامل
الداعية الى الاسراف والانهماك فى الملاهى والملاذ واضاعة ثروة العائلة
ومجدها القديم . ولهذا السبب المهم أنا ادعو المسلمين الى السعى فى هذا
الموضوع طالبا من الحكومة ان تعتني بمسئلة الاوقاف واحاطتها بما يحفظها.
فهى فخر المسلمين وحصنهم الحصين تجاه الفقر والايام العسراء . ولا انكر
انه ليس فى طاقة المسلمين ان يعيدوا للمسلين اوقاف (اطناس) و (الجاغير)
وغيرها مما تلاعبت به الايدى وعبثت بوجوده عوارض شتى ولكن يمكنهم
ان يحافظوا على القليل الباقى

ولنرجع الى موضوع المدرسة الكلية التى تكون مركزاً لدائرة التربية
الاسلامية فأقول : اذا اتبع الرأى الذى لمحت اليه فى العبارة السابقة فانه
يمكن وجود رأس مال ومنبع ثروة لمثل هذه المدرسة التى تجمع بين العلوم
العصرية والعلوم الاسلامية التى زهت وازهرت فى العصور السالفة
لتكمل بذلك تربية الروح وترقية المدارك لاستعدادها للعمل فى مضمار
الحياة الاجتماعية

ولكن اوجه انظاركم الى نقطة مهمة (وبحث هنا بحثا مفيدا يجدر
بمؤسسى المدارس الاهلية فى مصر ان يتمعنوا فيه فما يقوله عن الهند ينطبق

هنا تمام الانطباق) قال: «لا يخفى عليكم ان من اول اسباب نجاح مدارسكم التي تؤسسونها هو ان تسعوا بكل جهدكم لتحملوا الحكومة على اعتبارها للشهادات التي تعطونها للناجحين من تلامذتكم ليتمكن الناشئون من ولوج ميادين الوظائف التي ينظر اليها الناس من جميع الطبقات. فنصيحتي لكم هي ان تنتظروا قليلا حتى تثبت قدمكم وتأمنوا على نجاحكم وعند ذلك تطلبون من الحكومة ان تعتمد شهاداتكم فيقوى بذلك شأنكم وتكونون بمثابة هيئة امتحانية تعليمية وتتمكنون من تربية ناشئة عاملة تخضع لاوامركم وتسير في التيار الذى توجهونها اليه. وقبل ان اختتم الكلام في هذا الموضوع اصرح لكم انني اريد ان تكون التربية ذات وجهتين. وجهة عصرية علمية ووجهة دينية واشعر انكم تنتظرون مني كلاماً على التربية الدينية.

ايها السادة: انني اعتقد كثيراً في التربية الدينية واجعل لها اهمية عظمى في تهذيب عقول الناشئين. ولكني لا اعتقدفيها بالمعنى الذى تسير عليه اليوم. في اعتقادى ان التعليم الديني ينقسم الى قسمين: قسم يبحث في المذاهب والتفقه في علوم الدين واقوال رجال الدين واختلاف آرائهم في مباحثه، وقسم يتعلق بآداب الدين وهو المختص بنتائجه العلمية الفعالة. وفي اعتقادى ايضاً ان معرفة مذاهب الدين واقوال رجاله واختلاف مباحثهم فيه ليست بذات اهمية مالم تصحب بتقرير آدابه ونتائج مباحثه المرقية للمدارك المهذبة للروح. أجل اعتقد ان تلقين ابنائنا آداب الدين الصحيحة الخالية من شوائب الاوهام الفاسدة انفع بكثير من تعليمهم اصولا وقواعد رسمية بأشكال مخصوصة. فالدين يسر والمسلم تفيده العقيدة الخالصة والطوية القلبية اكثر من تلقي

المذاهب واختلاف اقول الباحثين فيها . فان كان الناشىء يريد التوسع فى امثال هذه المباحث فليقصر حياته على دراسة الشرع الشريف وفروعه التي تكون جزأ عظيما من العلوم الاسلامية وهى وحدها تحتاج الى التفرغ لها سنين طوالا مع اجتهاد كبير ونصب كثير . اما اذا كنا ننتظر من شباننا ان يتفرغوا لدراسة هذه الفروع بأجمعها مع هذا التنافس فى الحياة فاننا ننتظر المستحيل فى زمن توجهت فيه همم الامم الى الارتقاء وامتلأت بطون دفاتره من مباحث العلوم العصرية التي يعد الانسان بدونها جاهلا . وانى ايها السادة انسب كثيراً من تأخر المسلمين فى جميع اقطار الارض الى زيادة اهتمامهم واشتغالهم بالجزء الظاهرى من الدين اكثر من الجزء الروحى النفسانى. ولذلك احب ان تكون غاية المعلمين والمتعلمين من ابنائنا موجهة الى تهذيب الروح والعمل بآداب الدين لا بالأخذ بالظواهر من الاشياء . فمثلا قبل ان نعلم اولادنا طريقة الصلاة نعلمهم ما معنى الصلاة فنعلمهم ان الصلاة هى عبارة عن الخشوع والخضوع لذات الله البارىء جل جلاله. ويجب علينا ان نعلمهم كتاب الله سبحانه وتعالى فان هذا القرآن يهدى الى الحق ويجمع مع آداب هذا الدين الحنيف كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية ويعلم الناس من الحياة روح الوجود ومعناه .

انى ايها السادة كثير الفكر فى هذا الموضوع الذى تجاسرت على الكلام فيه امامكم واخاف ان لا تنصفونى وان يظن بعضكم انني تخطيت موقفي اللازم واندفعت الى الامام . ولكني اعتقد فى سلامة ضميركم انكم تجعلون لى شفيعاً من حسن الظن. ولو خالفتمونى فى آرائى فلا اقل من ان

تعتقدوا ان ما اقوله هو نتيجة بحث وتجربة استغرقت بى السنين الطوال ·
وما قلت لكم ما قلت الاحبا فى خيركم وانتم اخواني فى الدين والوطن
والغاية هى الوصول الى ساحة الفلاح والصلاح والنجاح فأى طريق
سرتم فيه فهو يوصل للغرض المقصود مادام مصحوبا بطهارة القلب وصدق
العزيمة وسلامة النية والعمل الصالح . واننا اذا لم نضع اختلاف الافكار
وحزازات الصدور تحت اقدامنا فاننا نبقى فى شقاق وانقسام ونصبح مضغة
فى افواه المنتقدين من اهل هذا العالم الحديث .

سادتى: ان اكبر داء أودى بالمسلمين هو الشقاق وحب الذات واختلاف
الكلمة وخصوصاً فى البلاد الهندية ولكم على ما اقول الف شاهد والف دليل .
ولا سبيل للخلاص من حب الذات والانقسام الا بالتعليم الصحيح والتربية
الحقة على المثال الانفع الانجع . وطريقة الوصول الى ذلك هو ان نربى اولادنا
على تقديم نفوسهم لاخوانهم واحترامهم لواجباتهم ومقامهم . ولكي تأتى
هذه الدروس بالثمرة المقصودة منها يجب ان تلقن للاولاد وهم فى حضون امهاتهم

« الوقف ونتائجه »

نشرنا فى عدد امس قسما كبيرا من خطبة رجل هندى يعد فى الطبقة
الاولى من نابغى مسلمى الهند وهو « امير على » القاضى فى محكمة الهند
العليا القاها على جمع عظيم من المسلمين فى « مؤتمر التربية الاسلامية » وقد
اشار فيها الي المزايا الجليلة التي خدم بها الوقف الامة الاسلامية فى عصور

كثيرة وقال ان الوقف يجب ان يسمى الذخيرة الثابتة لليوم العبوس القمطرير لانه من جهة يطيل أجل الثروة لعائلات المجد الكبيرة التى تعتبر الحصن المنيع دون هجمات فقر الامة واضمحلالها ومن جهة اخرى يمكن من عمل الخير الذى يعز على الذرارى والافراد القيام به زمنا طويلا . ثم تخلص من ذلك الى حث قومه على الوقف فى منفعة التعليم كما حثهم على تحرير التعليم بجعله مستقلا عن تعليم الحكومة حتى فى الشهادات التى ينالها المتعلمون الخ

وقد استلفتنا بالامس أنظار قراء المؤيد الى ما نقلناه من اقوال هذا الخطيب الغيور فى مسئلة الوقف وفى امر التعليم ورأينا الآن ان نعود الى بسط شىء فى المسئلة الاولى لنذهب من نفوس كثير من الناس غضاضة من مشروعية الوقف . فان بعضهم يرى انه قد يكون من معطلات العين التى لولم تكن موقوفة لتنقل الناس بها فى وجوه التصرفات الى مايطابق المصلحة ومقتضى الحال فى كل زمان ومكان وربما استأنس على قوله هذا بما يلقى عليه نظره يميناً وشمالاً انى ذهب فى المدن الاسلاميـة التى لا تزال تحترم الاوقاف وتحافظ على اعيانها فيرى من رسومها الدوارس وسط العمران ما يلقى به التبعة على مشروعية الوقف من حيث هي : وهو خطأ عظيم فى الرأى ومذهب باطل فى الاستئناس . فان الوقف من حيث هو لم يكن معطلاً عن التصرف بعينه فى كل وقت بما يطابق مصلحة الحال والزمان والمكان والعين معه تكون مثل العين غير الموقوفة تستنتج غلتها بالاصلاح فى كل وقت متي كان المتصرف فيها محسناً وتعطل متى كان المتصرف مسيئاً لافرق بين ان تكون وقفاً او غير وقف . واذا شاهدنا دارا موقوفة خرابا

وسط عمران فذلك ليس لانها وقف بل لأن القائم على الوقف لم يحسن ادارته وبقاؤه هكذا لانه ممنوع من التصرف فى العين تصرف الاضاعة والاذهاب . بخلاف المالك للعين فانه اذا أساء التصرف وفرغت يده وجيبه من الدراهم اسرع للعين فباعها لمن يحسن ادارتها فاذا أساء بعد ذلك المشترى او ورثه مسيء وعجز عن التعمير باعها ايضاً لمن يعمر وهكذا حتى قد يمكن ان تنتقل الدار المملوكة فى القرن الواحد لعشرات من الملاك فيهم ولابد المعمرون بينما تكون عين الوقف فى جانبه باقية ولو رسما وطللا بالياً. واذا كان اصلاح الوقف موقوفا على نتاج غلته عز تعميره حيث لاغلة له. فالاستئناس على عدم صلاح مشروعية الوقف بكثرة مايرى خرابا من الاعيان الموقوفة لا ينهض دليلا عليه . وفضلا عن ذلك فان مشروعية استبدال الوقف المعطل او قليل الايراد بخير منه ذاهبة بكل ذلك الضرر وموجبة للتصرف فى الاوقاف كل زمن بما يستلزم بقاء عمرانها واستزادته

بقى ان الوقف فى ذاته كان فى كل زمان ومكان حصنا من اندثار عائلات اسلامية كبيرة بالفقر والاضمحلال زمنا ما . وبقاء هذه العائلات على حالة الثروة والغنى حصن منيع يلوذ به دائما ضعاف الامم وفقراؤها. ولهذا معنى فى عمران الامم وقوتها لا تعرفه حق المعرفة الا امة فقدته : ولعل الامة الاسلامية الهندية التي تلاشت بيوتها الكبرى بعد ما ذهب نعيمها اعرف الامم بهذا المعنى واكثرهم شعورا بضروب شقاء العناصر التى ذهب من بينها كبراؤها

واما نفع الوقف فى الوجوه الخيرية الكثيرة فاوضح من ان يجحده جاحد وتاريخ مجد الاسلام قائم على دعامة الانتفاع بالوقف اكثر من كل

دعامة اخرى : فالتكايا والمستشفيات القديمة وملاجىء العجزة والمعوزين والجسور والقناطر والمرابطات لحفظ الثغور وبث الارصاد والعيون على الاعداء واقامة الحصون والمعاقل الكبيرة وحفر الآبار والعيون في الصحارى والسبل وبناء المساجد والمعابد والمدارس في البلاد كل ذلك قام على دعائم الوقف في العصر الخالية اضعاف ماقام على الصرف من بيت المال . والذى يقرأ خطط مصر للمرحوم على باشا مبارك يرى في تاريخ مدينتى الفسطاس العمرية او القاهرة المعزيه مثال الاعمال النافعة في كل حجر من احجارها او أثر من آثارها للوقف الاسلامى . واذا كان يوجد بين ربوعها اليوم شىء من الدور او المساجد خرابا بعلة الوقف كما يقولون فعمران المدينتين كله قد تناوب حظه في ازمنة كثيرة من أثر بركة الوقف ، وماصارت مصر كعبة الاسلام العلمية الدينية الا من أثر الوقف ، وما قام الجامع الازهر اكبر مدرسة علمية دينية في العالم سبعة قرون واكثر الا من أثر الوقف ، وما القصور الذى يلاحظه بعضهم عليه في هذا الزمان الا من أثر فقر العقول الذي يسىء صاحبه التصرف به في اعز شىء لديه ولا تبعة في ذلك على الوقف .

فالوقف اذن نعمة كبرى على المسلمين في كل زمان ومكان ولكن يجب ان لايخطىء الواقفون قبل كل شىء في تحديد وجوه استغلاله والتصرف بمزاياه الى مايخرجه عن الغرض المقصود الى مايشبه السفه المنهي عنه شرعاً . ثم يجب ان يتصرف فيه الناظرون التصرف الحسن لتكون عين الوقف دائما عذبة المورد فائضة بالخيرات التى وقفت لاجلها . والآن نحن معاشر المسلمين احوج الى الوقف منا في كل زمان . ثم اننا معاشر مسلمي مصر

والهند وتونس وكل بلد اسلامية احتلها الاجنبي غير المسلم وضرب على يد حكومتها ان تتصرف بحريتها او امتلكها امتلاكا واستعمرها استعباداً لاهلها احوج الى الوقف من المسلمين سوانا . لان اموراً كلية كثيرة كانت تقوم بها الحكومات الاسلامية قبل الضغط عليها او قبل ذهابها هي لازمة وضرورية لبقاء الهيئة الاجتماعية الاسلامية او لو قايتها من المصائب والموبقات قد قل عملها أو ذهب الغرض منها او بطلت بالكلية ولا يمكن الحفاظ عليها الا بالوقف . ومن اهم هذه الاعمال الكلية فى هذا الزمان تعليم الناشئين من اولاد المسلمين على المبادىء التى تؤلف بين قلوبهم وتحفظ جامعتهم اوكما قال القاضى (امير على) الهندى فى خطبتـه « ان نربى اولادنا على ان يهـدوا قلوبهم لاخوانهم وان يحترموا واجباتهم وكرامة انفسهم . »

واذا كان المسلمون فى مصر مجمعين اليوم على ان اسلوب التعليم الرسمى الذي يتولاه جماعة من الانكليز — وفيهم من اصله قسيس بين قومه — غير نافع لابناء المسلمين فيما يتعلق بجامعتهم الدينية ومحبة وطنهم فلا سبيل الى تحصيل هذا الغرض الا بالوقف . فالوقف هو الذى يسهل الطريق لعقلاء المصر بين ان ينشئوا ادارة معارف اهلية توحد طرق التعليم الاهلى بين كل الذين يتعلمون فى غير المدارس الرسمية وتجعله محترما فى مبدئه وغايته

واذ وجدت ادارة معارف اهلية بين ظهرانينا أمكنها فى وقت من الاوقات ان توجد لها الثقة التامة التى تمكنها من منح شهادات محترمة

معتبرة عند الحكومة كما سأل القاضى (امير على) الهندي قومه ان يسعوا لهذه الغاية التى هى نتيجة سامية من نتائج التعليم وضامنة نجاحاً كبيراً للناشئة الاسلامية : فعلى سراتنا الاغنياء التدبر فيما قدمنا والعمل لما ينفع النشأة الاسلامية اليوم وغداً والله الموفق **المؤيد**

تربية البنين والبنات

تتمة خطبة القاضى امير على

ايها السادة : قلت لكم ان التربية لا تثمر ولا تأتى بالفائدة المقصودة منها مالم تلقن مبادئها للاطفال في احضان امهاتهم . فنحن نتساءل اليوم هل نساؤنا فى درجة تمكنهم من تعليم ابنائنا ما نريد ؟

لقد اتى على المسلمين حين من الدهر طويل كان النساء يلقبن فيه (بامهات الرجال) فهل يمكننا ان ننعتهن اليوم بهذه الصفة؟ كلا. وليس ذلك ذنبهن ايها السادة فان المرأة كانت ولا تزال آلة فى أيدى الرجال يوجهونها حيثما ارادوا وكيفما شاؤا . فلذلك اعتقد اعتقادا لاشك فيه اننا اذا كنا نريد ان نرفع انفسنا فوق سلم المدنية والارتقاء واذا كنا نحب ان يحترمنا الناس ويجلنا ابناء هذا الزمان فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن الى الدرجة التى وصلنها فى ايام اسلافنا الكرام . واعلموا انه توجد الآن ببلاد الدولة العلية ومصر مدارس زاهرة لتعليم الناشئات من فتيات المسلمين وان النساء فى هاتيك الديار قد اخذن يعملن فى دائرة الحياة الاجتماعية كما كان لهن

فى ايام عظمة الاسلام ومجده الفخيم

أجل ايها السادة انى اعتقد ان تربية البنات يجب ان تسير يداً بيد مع تربية الاولاد اذا كنا نود ان يأتي التعليم بالفائدة المطلوبة . ويجب ان نعلم اننا لا ننتظر اخيراً مالم تكن نسبة التربية بين الابناء والبنات متساوية لاننا اذا اهملنا نصفا من الهيئة المكونة لحياتنا الاجتماعية واعتنينا بالنصف الآخر فان النتيجة تكون سيئة فاسدة. اذ من الامور المقررة انه اذا ترقت افكار نصف الامة وبقي النصف الآخر ملقى فى ظلمات الجهل وانحطاط الفكر فان الجزء المتعلم ينفر من الجزء الجاهل ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع الى ذلك سبيلا ويحاول اما ان يسير فى تيار لا يرضى الشرف والصالح واما ان يخفض نفسه وينحط بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط فى حياته

ولذلك ارى من اللازم الضرورى ان يسعي مسلمو الهندفى تعليم بناتهم من هذا الوقت وان يضعوا امام اعينهم النموذج الذى يسيرون عليه للامام. سادتى ان كلمة (الاصلاح) ترن فى آذانكم بنغم غريب وربما لا يستحسنها بعض الذين تعودوا على سماع اقوال رسخ معناها فى الاذهان من قديم الزمان ولهذا السبب اراني مضطرا الآن اردف كلمة (اصلاح) ببيان معناها . فانا لا اريد بهذه الكلمة اصلاحاً فى الدين بل اقصد بها بلا خلاف الاصلاح فى طرق التربية وفى نظام المجتمع الادبى والاعتيادي وخلع اردية المعتقدات والاوهام الفاسدة مما ليس من الدين فى شيء والتحلى بالآداب الصادقة الصحيحة المعقولة . وانني اعتمد فى هذا الاصلاح على الشبان الناشئين من

ابنائنا الذين يرون انفسهم على باب معترك الحياة ومزدحم الوجود. اذ ليس
فى امكاننا نحن اكثر من ان نضع لهؤلاء الناشئين الحجر الاساسى لهذا العمل
وعليهم هم ان يرفعوا البناء ويشيدوه بأنفسهم . أولئك الذين اتجاسر ان القى
اليهم بعض النصائح التى يجب ان يتخذوها رائدهم فى هذا السبيل وعليكم
ان تكونوا خير الواسطة فى تبليغ هذه الاقوال الى مسامع بل قلوب ابنائكم
وناشئيكم

ان من الضرورى للنجاح سواء فى ترقية المدارك وارتقاء سنام العلياء
ان نضع امام اعيننا مبادىء مخصوصة نضرب اليها بسهامنا ونرمي اليها آمالنا
ومن لا مبدأ له فذلك الذى يسير على غير هدى ، ذلك الذى يعيش فى
الظلام ، ذلك الذى يطرح بنفسه فى تيار التعاسة والشقاء . اذاً فاول واجباتنا
ان نضع هذه المبارىء نصب اعيننا ظاهرة واضحة فى ايام شبيبتنا وكهولتنا
حتى نعيش بها شرفاء متحدى الغايات والقلوب كي نختم ايامنا بالسعادة الابدية

فاول مبدأ لنا يجب ان يكون الصدق والاخلاص ولم يخلق الله تعالى
انسانا فى الوجود حث على مبدأ الصدق واخلاص الضمير اكثر من نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم. واذكر لكم معنى الصدق فى الوجود فى كلمات لكاتب
من كتاب هذا الزمان قال : « هو ان تجاهد بعزيمة لا يشوبها ضعف فى
سبيل الحق حتى ولو كان الحق سلاحا يلصق بك الباطل فانك لا بد ان تفوز فى
النهاية واعلم ان رجوعك عنه ليس الا احتقار لمبدأ الصدق الذى يحكم قلوبنا »

وليكن نصب عينى كل واحد منا الاعتقاد التام بأننا نعمل اعمالنا
تحت نظر و رعاية الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم كما يجب علينا ان نسأله

الهداية والرشاد ونستمد منه المعونة فى جهادنا واعمالنا لان العمل على هذا الاعتقاد القلبي يرفع المرء من الحضيض الادنى الى السماك الاعلى ويجعل حياتنا نموذجا صالحاً لأعقابنا

ولابد لنا فى هذه الحرب القادمين عليها ان نوطد العزيمة على الثبات كما يلزمنا قبل كل شيء ان نرقى عاداتنا الاجتماعية والعائلية فان الناشئين بنوع خاص يوءثر على عقولهم كل مايحوط بهم فاسداً كان او صالحاً . كذلك يلزمنا لبلوغ الغاية التى ننشد ضالتها ان نعلم نساءنا الاخلاص والمروءة والشهامة والاحترام وكل الاخلاق الفاضلة التى كانت لنساء المسلمين فى الايام الماضية فاننا اذا لم نرب الناشئات على الطهارة وشرف النفس والحياة ومعرفة واجباتهن التى كلفهن بها الخالق سبحانه وتعالى لايليق بنا ان ننتظر من الناشئين حياة شريفة ومدارك عالية سامية

ومن المبادىء التى يلزم ان تكون نصب عيني كل ناشيء مبدأ الامل فى النجاح :

كل فرد فى الوجود خلق وفى نفسه بذور الترقى التى لا يستنبتها الا التعليم والتربية والتجربة . العلم يخرج الناس من الظلمات الى النور ولكن التعليم يكون عديم الجدوي ما لم نعرف انه كما ان العلم بحر واسع لا ساحل له كذلك النجاح محيط زاخر لا حد له ونعرف ايضا ان الوقوف فى نقطة واحدة معناه التأخر والاضمحلال . نحن نرى امامنا وحولنا بعض شبان يبدأون العمل فى الحياة بنشاط فتبرق لهم أسرة الآمال ويخطون فى سبيل التقدم والنجاح بضع خطوات ثم يدركهم الملل فيقفون

فى مراكزهم ثم يسقطون ويضمحلون . فلا تدعوا أولادكم يرتكبون هذا
الخطأ بل لاتدعوهم يفتكرون انه متى اتم الواحد منهم دراسته وحاز
شهادته فقد جاء على العلوم بما فيها، او انه يقدر فى المعارف بمن تخرج من
كليات اوروبا

سادتى: لابد للوصول الى ساحة النجاح مادمنا نعمل بايدينا لانفسنا
ومتى كان امامنا غرض نضرب اليه فان الرجل بغير قصد كالسفينة بلا دفة
فان لم توطدوا عزائمكم على الثبات وعدم التحول عن الغرض فانى اؤكد
لكم الفشل والخذلان فان القائد الذي ينتصر على عدوه فى معترك الحياة
هو الذي يتقدم بارادة تملأ جوانحه ثباتا وصبراً الى ميدان الحرب وهكذا
حتى يصل الى غايته المقصودة . وهذا التاريخ يقول لكم انه لم ينجح فى
الوجود من كبار الرجال الا الذين رسموا لانفسهم خطة العمل مع قصر
الزمن . اجل ايها السادة اذا كنتم تريدون النجاح فاعملوا بارادة صادقة
وعزيمة ثابتة . كنت اطالع كتابا رأيت فيه نبذة تنطبق على احوال شباننا
اكررها لكم . قال مؤلف الكتاب : « اننى لا اعتقد فى شاب يكثر التذمر
والشكوى من حالته ويملأ الدنيا كلاماً وادعاء بانه قادر على ان يعمل اعمالا
عظيمة يشهد بها التاريخ لو اتاح له الحظ وسطاً غير الوسط الذى هو فيه »
فهذ امثال الاطفال الذين لم توضع تربيتهم على اساس صالح فانبذوهم
ولاتقربوهم فان الحظ فى اغلب الاحوال لادخل له فى النجاح بل العزيمة
والاقدام ورسوخ النية وجلدها على مقابلة المصاعب والمتاعب امام نداء
الواجب والتعود على الشغل والنصب الذي لايتم الا بمزاولة العمل حيناً من

الزمن : فكل هذه الصفات هى التى ترفع المرء الي حيث شاء واراد وعلى هذا فاول واجب هوان يتعلم الاولاد ان يضعوا ذروة الارتقاء دائما نصب اعينهم ليجتهدوا فى الوصول اليها . نعم اننا ربما لا نصل الى كل ماتتمنى ولكننا نتقدم فى سبيل التقدم خطوة كبرى ما دامت غاياتنا كذلك.

موئتمر التربية الاسلامي (*)

(فى رامبور)

اجتمع مؤتمر التربية الاسلامي الهندى هذا العام فى مدينة رامبور ووفد اليه خلق كثيرون من جميع الجهات الهندية وكان رئيس هذه الجلسة حضرة العالم الفاضل (نواب عماد الملك سيد حسين بلغرامي الحيدر آبادي) وبعد افتتاح المؤتمر قام حضرة الرئيس فالقى خطبة بليغة طويلة باللغة الاوردية رأينا ان نلخص اهم نقطها للقراء فان المقام يضيق دون ترجمتها برمتها قال :

ايها السادة : تعلمون حفظكم الله ان الغرض من جلسات المؤتمر الاسلامي للتربية يرمي الى ثلاثة مقاصد : (الاول) بث روح التعاون والائتلاف بين جميع كبار المسلمين من الجهات المختلفة وجمعهم فى صعيد واحد وبغير ذلك قد يكون من النادر اجتماعهم . (الثانى) ان يمهد لهم

(*) مؤيد ١٣ و ١٤ فبراير سنة ١٩٠١ عدد ٣٢٨٧ و ٣٢٨٨

سبيل البحث والمناقشة فيما يرونه صالحاً للتربية ومنفعة اخوانهم المسلمين .
(والثالث) الاتفاق وربط القلوب على القيام بعمل نافع يفيد ابناء ملتنا ويسمو بنا فى سبيل الفلاح والنجاح. ولا يكون ذلك الا بعقد الخناصر على نشر العلوم والمعارف العصرية ومساعدة مدرسة عليكدة الاسلامية. وهي المدرسة الوحيدة التى اسسها المسلمون بايديهم ولا يليق بهم ان يهملوها حتى تضيع هباءً منثوراً . اما هذا المؤتمر فقد اسسه المرحوم السيد احمد خان من خمس عشرة سنة مضت وحضر بنفسه خمس جلسات له قبل ان يتوفاه الله . ثم صار المؤتمر ينعقد بعد ذلك فى المدن الهندية حتى اجتمع فى العام الماضى فى مدينة كلكتا وكان له الشأن العظيم الذى عرفتموه . فهذا المؤتمر نعده اكبر خطوة فى سبيل التقدم لانه يدل على ان المسلمين متحدون عارفون بتأخرهم وانحطاطهم وانهم يجتمون من كل صقع وناد للمداولة والاتفاق على الوسائل التى تنهض بهم . ولا شيء فى العالم يرقى الامم ويسير بها فى طريق النجاح والفلاح سوى العلم والتعليم والتربية والعمل والتجربة

نحن نكتفى بان نقول ان كل مسلم الآن كيفما كانت درجته من الجهل يرى من الواجب عليه ان يربى ولده ويعلمه. ولكن الجزء الاعظم منا يرى انه ادى هذا الواجب بكونه سلم ولده الى فقيه او الى مكتب او الى اقرب مدرسة اليه ويظنون ان ذلك هو الغاية والنهاية التى ليس بعدها غاية ولا نهاية ، فترتاح ضمائرهم وتفرح نفوسهم وربما يتبجحون على اولادهم بانهم ارسلوابهم الى المدارس وصرفوا عليهم ما صرفوا من النقود .هذاهو منتهى

اهتمامنا بتربية ابنائنا وتكون النتيجة ان ينشأ الاولاد فى حياض الجهل ويتساقوا فى طريق الفساد والضلال وترجع تبعة ذلك على آبائهم لانهم لم يعيروا تربية ابنائهم الاهتمام الواجب. فلم يختاروا لهم التربية المناسبة للزمان والمكان ولم يبحثوا عن الوسائل الموصلة الى ادراكها. وحجة الجهل ليست مقبولة فى محكمة الوجود كما انها لاتقبل فى محكمة القانون. فهؤلاء الآباء يعاقبون على جهلهم فى اشخاص فلذات اكبادهم واحب الناس اليهم

تغير الزمان فتغيرت معه التربية وتغيرت معه المعارف والعلوم: كان الناس يكتفون فى الازمان الاولى بان يعرف الواحد منهم الكتابة والقراءة وشيئاً من علوم الادب كنظم الشعر وتقفيته ويعد نفسه بذلك شاعراً اديبا وكان الذين يريدون ان يكونوا علماء يذهبون الى المدارس العربية ويصرفون السنين الطوال فى دراسة التوحيد والنحو والمنطق والفقه

اما الآن فقد تغيرت وتبدلت كل هذه الاحوال وأخذ العالم شكلا جديدا والبست العلوم ثوبا قشيبا فلم يعد لذلك الاديب الذى اكتفى بنظم القوافى مكان يمرح فيه. كذلك اصبحت طبيعيات ارسطو وابن سينا قديمة عتيقة نخرسوس الزمان عظامها. واصبح جبر الخيام وكيمياء جابر وساوس واوهاما. كذلك لم يعد لنظريات ابن رشد ولا لفلسفة افلاطون ولا الفارابى ذلك المقام الأعلى اعنى انها اصبحت لا يدرسها احد واذا اعارها طالب نظره فانما يفعل ذلك بقصد الافادة والوقوف على التغييرات والاختلافات التى طرأت على عقل الانسان

والحقيقة ايها السادة اننا وقعنا فى سبات عميق عدة قرون من الزمان

بينما كانت الامم الاخرى تسير فى طريق التقدم يوماً بعد يوم . فكنا بعبارة اخرى واقفين والارض متحركة تحت اقدامنا وكأنما غرسنا لانفسنا بذور الانحلال والاضمحلال فى ساعة وقفت فيها اقدامنا فنمنا على صماخ آذاننا لانسمع دوى البروق ولاقصف الرعود مطمئنين مقتنعين بما علمناه فى الازمان الماضية ولم تحرك للسعى وراء اسلافنا فنزيد العلم علما ونكمل النقص ونصلح المختل . وما ذا جرى بعد ذلك ؟ اقول لكم بالصراحة والايجاز اننا قد فقدنا كل شىء حتى ماتت فينا صفات الشجاعة والشهامة والاقدام والمطامع التي كانت من مزايا هذه الامة وذهبت ادراج الرياح . ومن الغلط ان نتصور ان المسلمين فقدوا هذه المزايا بعد ان فقدوا سلطانهم ونفوذهم . فان التاريخ ينطق بلسان فصيح ان الامر لم يكن كذلك ولكن الحقيقة اننا فقدنا سلطاننا لاننا اضعنا صفاتنا واهملنا نفوسنا

ويظهر ان المسلمين الآن تنبهوا لحالتهم الاجتماعية وتاخرهم فى كل شىء وهذا المجتمع اليوم مثال ناطق على هذة اليقظة والنهضة الجديدة . ابتدأ المسلمون يعرفون انه من الصالح ان ينتبهوا من غفلتهم وان ليس عليهم فقط ان يحيوا ما اندرس من آثار اسلافهم بل ان يأخذوا من العلوم العصرية والتقدم العقلي الذى وصل اليه الانسان فى الازمان التي كنا فيها غافلين نائمين

واني اعرف انه يوجد بيننا فريق من الناس يظن ان علوم المتقدمين كانت كافية كافلة وانها منتهى ما يمكن ان يصل اليه عقل الانسان وان المتاخرين كانوا فى منتهى درجات الكمال . واني اشعر بالراحة والسرور

كلما عرفت ان هذا الفكر السخيف ليس عموميا بين افراد هذه الامة. فان حوادث هذا الزمان الحادة والحقائق الساطعة طردت من ادمغة الناس ذلك الاعتقاد وعرفتهم ان لا نجاح ولا فلاح بغير العلوم العصرية وان اصحابها فاقوا العالم وقهروا سواهم بعلومهم وفنونهم والعاقل من يسعى للاستفادة منهم بقدر ما يمكن الوصول اليه ليقف معهم على سلم واحد من درجات الحياة »

(المؤيد) ثم انتقل الخطيب من ذلك الى علاقة الهنود بالحكومة وان من حسن حظ الهنود ان احتلت انكلترا بلادهم بدل دولة اخرى اجنبية وحمل الحكومة ثناء لاتطيق النفوس حمله . وهو شيء يعرف عقلاء الهنود فائدته لمصالحهم وخصوصاً المسلمين منهم. واستطرد من هذا البحث الثانى الى اهمية العلوم العصرية والمدنية الغربية ثانياً وكيف ان علوم العصور السابقة ليست بكافية فى هـذا الزمان وانها متأخرة عن سواها عدة قرون حتى قال :

« اذا كان فى هذا المجتمع واحد لا يقبل هذا الرأى و يتجاسر بالقول على ان علومنا القديمة كافية لنا فلينظر الى ممالك الاسلام فى العالم كله : لينظر الى بلاد الجزائر ومراكش التى عبر من شاطئها طارق وموسى بن نصير ليتغلبا على بلاد الاندلس. لينظر الى تونس تلك البلاد التى كانت دولة بحرية عظيمة ذات شهرة ذائعة فى العالم اجمع: فالجزائر مستعمرة فرنساوية وتونس مثلها اوتكاد ان تكون مثلها ومراكش منحلة معتلة تريد اسبانيا التى اغار عليها ابناء العرب سابقاً ان تغير عليها وتضمها اليها . وهذه فارس فى حالة ضعف

شديد اقفل التعصب والجهل والحماقة ابواب التقدم فى سبيلها فهي اقل من الولايات الهندية المستقلة

فانا اسألكم ان تنهضوا بانفسكم وتعملوا عملا يليق بكم مادامت ابواب التقدم مفتوحة اما منا وكل ما نريد ان نسعى اليه هو العلم والتربية

اهم شيء نحتاج اليه كما ذكرت لكم هي التربية والتعليم ولدينا الآن طريقان للوصول الى الغاية المطلوبة : (الاول) هو اصلاح مدرسة عليكده وترقيتها حتى تصل الى درجة تساعد على تهذيب وترقية النشأة الحديثة فى الاقطار الهندية بل قد تصل الى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط رحال الطلبة من جميع الاقطار الاسلامية. وليس من البعيد عند ذلك ان ينبغ فيها امثال ابن سينا وابن رشد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويبحثون فيها وينهضون بها . فان هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيماوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية يعيدون لنا سالف مجدنا القديم فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتبا فى علم الهيئة الحديثة وهلم جرا

وهل يخطر ببالكم ايها السادة ان هذه اضغاث احلام واماني لا تحققها الايام ؟ اذا كنتم تظنون ذلك فانا اوجه انظاركم الى دولة اليابان فقد رأيتم باعينكم ما وصلت اليه الجزائر وتونس ومراكش وفارس من الانحطاط لانها لم تقبل السير مع التقدم العصرى . انظروا الى اليابان وما عملته لنفسها باتباعها طريقا يخالف الذى اتبعته الممالك التى اشرت اليها آنفا . فقد بقيت

اليابان متاخرة غير مذكورة مدة طويلة لم تلتفت فيها الى المدنية العصرية ولكنها تنبهت قبل فوات الفرصة واغتنمت الظروف ووصلت الى درجة من النجاح والتقدم فى اقل من عشرين عاما جعلتها فى صف الدول المهمة التى يعتد بها بين الدول الاوروبية حيث خطت خطوات واسعة فى العلوم والفنون ونشرت ألوية المعارف والآداب فى اطراف بلادها. وانتم تعلمون انه ظهر بين رجالها من اكتشف اكتشافات حديثة في عدة علوم اعترف الاوروبيون بفضلهم فيها وهى اليوم (اليابان) تعد نفسها فى صف الدول المتمدنة وانها هى النور الذى يسطع من الشرق على القارة الاسيوية»

(المؤيد) ثم استطرد الخطيب من ذلك الى الاستشهاد بالنهضة العلمية التي بعثتها مدرسة عليكده فى نفوس المسلمين فى الهند على حداثة عهد تلك المعدسة وشرح لسامعيه نتائج تلك النهضة وعدد الكتب التى الفها المتخرجون من المدرسة المذكورة وما سببته من الحركة الفكرية والحياة العلمية بينهم دلالة على ان السير فى طريق التربية ونشر انوار العرفان وتشييد المدارس يؤدى حتما الى النتيجة التى وصلت اليابان اليها. ثم قال : « والذى نريده الآن هو ان ننشأ اولادنا فى المستقبل فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والاوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب . فقل ان يوجد بيت فى الهند لاتنشأ فيه الاولاد بين الخدم والرعاع الذين يغرسون المفاسد وسوء الاخلاق والخرافات فى نفوس الاطفال ولا يليق بنا ان نهملهم الى هذا الحد فان المرء يفسده القرين السوء

نعم ان الآباء مكلفون بواجب الشرع والقانون ان يربوا ابناءهم ويهذبوا اخلاق اولادهم . ولكن اين هم الآباء الذين يعرفون ما هى التربية وما هى الطرق والوسائل النافعة الناجحة فى اصلاح شؤون عائلاتهم ؟ واذا اردتم الحقيقة اقول لكم بالصراحة ان عائلاتنا ومنازلنا لا تصلح لتربية ابنائنا بل هى تلحق بهم ضرراً بليغاً . وانجح وسيلة هى ان نرسل بهم الى مدرسة كمدرسة عليكدة ليقيموا فيها بين اساتذتهم ومعلميهم . ولا تخافوا من كثرة المصاريف فانها ترد لكم اضعاف ما تصرفونه على ابنائكم

ولتسمحوا لى ان اقول للاغنياء والقادرين اذا اردتم خيراً لأمتكم فساعدوا ابناء الفقراء بالمال ليتمكنوا من البقاء فى هذه المدرسة

ايها السادة : لا يوجد فريق من الناس يستحق الاحترام كثيرا مثل السادة العلماء (يعنى علماء الدين لان كلمة عالم فى الهند لا تطلق الا على من كان فقيهاً فى الدين) فانهم يساعدون على بث مبادئ الدين الاسلامى ويوقدون جذوته فى نفوس الامة . ولكن ايها السادة لم يخلق الناس كلهم ليكونوا علماء او فقهاء فان الدين يضمحل ويتلاشى او يسقط اعتباره ما لم يساعد المال على نشره وتقويته . واننا نعترف ان من الواجب على كل مسلم ان يعرف اصول دينه ولكن التوسع فيه والانقطاع له يترك الى فريق من العلماء يبقون فى الامة كالمنارات التى يهتدي بها فى ظلمات البر والبحر . ونحن الذين نريد ان نلقى بانفسنا فى معمعان الحياة وجهادها لا يمكننا ان نقوم بالوظيفتين ونعمل فى الطريقين .

اعتقدوا سادتى ان الاسلام معزز مؤيد ان شاء الله لا تضيع قوته

ولا تنزل مكانته فان العلماء محافظون على رفعته ومكانته . واذا كان الاسلام يخشى شيئاً فى الوجود فانما يخشى قصورنا واهمالنا وبقاءنا فى آخر صف من صفوف الامم متقاعسين عن السير مع الزمان والاخذ بعلومه وفنونه الحديثة . ولا تنسوا ابداً ان العالم جهاد وكل فرد فيه محارب مقاتل رضى هو اولم يرض . فاننا لواردنا ان نترك الدنيا فانها لاتتركنا ولا تتخلى عنا فى اي زمان او مكان . ومن الجهل والجنون ان نتكاسل ونتغافل ونحن مطلقو الايدى قادرون على الاستعداد واخذ الاهبة للحرب والقتال

اى فائدة تأتى من وراء الاعجاب والفخر بمجدنا السالف مالم يكن الغرض من ذلك بث روح الحياة واقتفاء آثار الماضين والتشبه بهم فى حبهم للعلم والعمل ؟ اقول ذلك لانى ارى كثيراً من الناس يتفاخرون بمدنية الاسلام السابقة ، وانهم من سلالة تلك الامة العربية العظيمة ، وان اهل تلك العصور التى يتناهون فى حبها كانوا فى منتهى درجات الكمال الشخصى ، وان لا مدنية ولا علوم ولا آداب بعد الذى مضى وانقضى : اي جهل بعد هذا ، واي ضرر اعظم من هذا ، واى داء اشد فتكا من هذا ؟

اذا اعتقدنا ان صحيفة الكتاب طويت وان طرق النجاح سدت فى وجوهنا وانه من المستحيل ان تطهر نفوسنا فاى وسيلة تنهض بنا ؟ نعم لا انكر ان الانسان يفتخر بآبائه وأجداده ولكن يلزمه ان يخجل عند ذكرهم ووصف درجتهم مع مقارنتها بدرجته . ثم ان اهل تلك العصور لم يصلوا الى درجة الكمال الشخصى حتى نقول ان العالم فى تقهقر بل ان عيوبنا الشخصية التي نشكو منها تدرجت منهم الينا . هذه هي الحقيقة ولا يصح ان نجهلها

اذ متى عرف الانسان نفسه امكنه ان يصلحها . اما اذا وضعناها فى غير مكانها واخطأنا فى التاريخ هـذا الخطأ فاننا لانقدر ان نعرف مبدأ سعينا ومنتهى آمالنا

ايها السادة : ان كل مندوب منكم مكلف ان يؤدى لهـذه الامة الاسلامية واجباً عظيما : يلزم ان يكون كل واحد منكم مرشدا واعظاً بين قومه وعشيرته، عاملا على رفعتهم، حاثا لهم على الاتحاد والائتلاف ونشر انوار العلوم . فلاتدعوا هـذه الفرصة تمر عليكم دون ان تؤدوا فيها لهذا المؤتمر الوظيفة التى يكلفكم بها . ونحب ان ننتهز هذه الفرصة فنقرر شيئاً نستفيد منـه لان انعقاد المؤتمر لا يثمر ولا يجـدى الا اذا جاءت من ورائه فائدة نافعة ... الخ

(المؤيد) وهنا بحث الخطيب فى طرق جمع الاموال من الجهات الهندية لمساعدة المدارس الاسلامية وما شابه ذلك مما لا محل له هنا . وقد اقتطفنا هـذه الرسالة وما قبلها من خطبته مع المحافظة التامة على افكاره وآرائه واقتصرنا على النقط التى تتعلق بالمسلمين كافـة فلا تختص بالهنود دون المصريين اوغيرهم . ولاشك ان فى خطبته عبارات جديرة بالامعان تستدعى التفات المسلمين واهتمامهم : نسأله سبحانه وتعالى ان يوفق المسلمين فى كل قطر ومملكة الى ما فيه صالحهم حتى لايذهبوا فريسـة الطوائف الاخرى وطعمة لغيرهم من المجاهدين فى ميدان هذه الحياة .

خطبة

النواب المعظم (مهدى على خان محسن الملك بهادر)

نشرنا فى عدد مضى خلاصة خطبة جناب الفاضل رئيس مؤتمر التربية الاسلامية مما اعجب بها القراء كل الاعجاب

وقد وقفنا الآن على قطعة كبيرة من خطبة النواب المعظم مهدى على خان محسن الملك بهادر رئيس لجنة ادارة (كلية عليكده) وخلف المرحوم السيد احمد خان مؤسس النهضة العلمية الاسلامية فى البلاد الهندية منشورة فى جريدة (وطن) التي تصدر بلغة اوردو فى مدينة (لاهور) فرأينا ان نقتطف منها ما يفيد القراء وهو :

« العلم العلم. عليكم بالتعلم والعلم. فاذا شئتم ان تتعلموا و تستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة واخلاقكم الوخيمة واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها . استلوا سخائم النفوس من صدوركم . وكونوا يدا واحدة فى كل اموركم . لا تكونوا عالة على الحكومة ولا على زيد وعمرو وابحثوا واطلعوا على مشكلات الامور السياسية التي تجرى بين ظهرانيكم فان وجدتم فيها ما يخالف مصلحتكم فأمحضوا النصيحة للحكومة . ابذلوا الجهد فى ان تعرف منكم سلامة النية فيما تقولون لتشتروا منها التفاتها والاستضاءة بثاقب آرائكم لانها متى رأتكم اهلا للثقة كانت فى حاجة

مؤيد ٢١ و ٢٥ فبراير سنة ١٩٠١ عدد ٣٢٩٣ و ٣٢٩٦

شديدة الى الاسترشاد بكم . وبعبارة اخرى يجب علينا ان نحافظ على ناموس كرامتنا لتقوم لنا بهذه المحافظة مصالحنا وما بقي لنا من المناصب في الحكومة . واعلموا ان كل حكومة لا تخلو من خطأ او شطط اوعيب في احكامها وقوانينها لان الانسان مهما بلغت منزلته من العلم والعقل والتحرى في الحكم فلا يخلو من خطأ اذ العقل محدود . ولكن حكومتنا التي يدير رحي شؤونها جم غفير وعدد كثير من فطاحل السياسة ودهاة الامة اقل الحكومات خطأ لكثرة ما يتبادل رجالها الآراء والبحث والتنقيب . فالتهور في تسفيه اعمالها قبل النقد ودقه الامعان قد يسمى تعصبا وجهلا

هذا وان كثيرين من الذين استعبدهم التقليد القديم وخيمت عليهم عناكب الجهل والضلال ولم يبارح احدهم قرار داره او ظل جداره يفوّقون سهام التنديد والاعتراض على من يريد اقتطاف ثمار التمدن الجديد واكتساب العلوم العصرية . فهؤلاء معطلون لانفسهم ولمن يصغى لقولهم وان كانوا باعتبار الحكم الغالب لا يؤثرون بشيء الا كما يؤثر الضرب في الحديد البارد

واني لاثق من حضرات الافاضل الذين جمعهم هذا المجلس الحافل انهم لايشكون في ان ما القيه على مسامعهم لايخرج عن دائرة الاصول المرعية والقواعد المتبعة بمقتضى الدين المحمدى الحنيفى . وهو أنا اذا رمنا اصلاح قومنا وحالنا ومآلنا ، اذا رمنا ترقية شؤوننا وتخليد آثار تدل علينا وتشهد لنا ، اذا رمنا محو حروف قهقهة الغربيين علينا من صفحات تاريخنا كما تمحى الحروف التي يهفو بها قلم الكاتب البليغ — فاعلموا انه يتعين علينا

ان نشارك الامم الغربية فى معارفهم وان نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والاقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم او اختراع عمل . ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل الا اقتطاف جنى علومهم وادخال مدنيتهم بين ظهرانينا ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا المزدحم الشديد الا التكافؤ . اصبح من المقرر المعلوم انه لا تكاد توجد صناعة او تجارة اوأى حرفة كانت من حرف هذه الحياة الا وهى متوقفة على معرفة اللغات والعلوم العصرية الغربية توقف اللازم على الملزوم والموصول على الصلة حتي ان خدمة العسكرية التى هى عمل القتل وسفك دماء البشر صارت متوقفة اشد التوقف على لغات الغربيين وعلومهم: فنحن حتى لو اردنا قتالهم فلا محيص لنا عن تعلم فنون قتالهم منهم وهم لا يبخلون علينا ان يعلمونا ذلك

هذه العلوم من اهم وسائلها لدينا تعلم اللغة الانكليزية فيلزمنا قبل كل شيء تحصيلها واتقانها

رجعنا الى مبحث التعلم والتعليم ولعل جميع الحاضرين ظنوا انني سأتكلم عن مسألة المكاتب والمدارس الاميرية الموجودة الآن فى بلادنا وهل هى كافية بحاجتنا او ان طريقتها فى التعليم ناقصة غير مفيدة

على انا قد بينا فى مواقف كثيرة ان الفريق المخالف لنا الذي يرجح اختيار طريقة التعليم الموجودة فى تلك المدارس والمكاتب يعترف معنا بانها ناقصة تحتاج الى تقويم بل الى ترميم وتغيير كثير

وبالجملة فانه يحق لنا ان نقول اننا لم نر احداً من المسلمين الهنديين

نبغ فی تلك الطريقة المسلوكة الآن فصار حكيما فيلسوفا او مدبراً يقتدى بسياسته ويفزع فی المهمات اليه وينتفع الوطن بعلومه . ولعل بعض الناس يحتج على عدم صحة مدعانا بمثل المرحوم (السيد احمد خان) حكيم الهند المؤسس لنهضتنا او بالمرحوم (النواب تراب على خان مختار الملك) وزير الدكن الشهير . فاقول ان المذكورين لم يكونا كما يزعم الناس فيهما من نتائج تلك الطريقة وحدها بل هما ابنا جدهما وكدهما ومثابرتهما الطويلة على الاطلاع على كثير من العلوم والفنون دون وقوف عند حد منها

ان مدار التعليم فی المدارس والمكاتب الموجودة على الامتحان المقرر وهو ليس اختياريا بل اجبارى يسد على الطالب مسام استنشاق ارواح العلم فيما ينفعه

وان للطريقة الجارية عيوباً جمة لا يرضى بها من له مسكة ودين . ومن اكبر عيوبها انها خالية من الكتب الدينية الاسلامية والاسفار التاريخية المتعلقة بالاسلام والمسلمين ولذلك نرى الطالب يقضى نضرة شبابه فی تلك المدارس ثم يخرج منها لا يعرف من امور دينه شيئاً ثم هو لا يعرف شيئاً من تواريخ الاسلام ومغازى حضرة سيد الانام عيه الصلاة والسلام على انه لا دير ولا رهبانية فی الاسلام.

ومعلوم ان قوى النفس الانسانية مفتقرة الى تعهدها بالتربية والتثقيف فالارض مثلا لا تعطى ما فی ارحامها الا بالفلاحة وهی لا تكون الا بادوات خاصة بها واسباب تهيئها. والكتابة لا تكون الا بالقلم وتوابعه .

وهذه الادوات فی التربية هی عبارة عن العلم الصحيح والمعلم الكامل

والاخلاق المهذبة وحسن القدوة من الاهل والاقران واحكام المراقبة التى يكون بها اجتناب كل ما يخل بالشرف والآداب المصطلح عليها مع تعهد مستمر فى تقويم الطباع المتأصلة والعقائد الموروثة الى الصحيح السليم منها — والتربية بهذا المعنى تشمل الوقوف عند الاوامر والمناهى الشرعية بعد معرفة الحلال والحرام ومقاومة شهوات النفس وصرف قواها الى صوالح الاعمال والكمالات الكافلة لسعادة الحياة وبعد الممات ٠ وقوام التربية الاول رفض الافكار الخبيثة والاوهام الفاسدة المعطلة وتطهير الجوارح الظاهرة والباطنة من ادرانها الملوثة .

وانى لاعجب ممن يسلم زمام ولده الى الشيخ او البابو (البابو فى اللغة الهندية المعلم الوثنى) ليعلمه ثم هو ينفض يده من كل شىء يتعلق به مقابل ان يدفع للمعلم عشر روبيات فى الشهر مثلا . فهل العشر روبيات المذكورة توجد فى المعلم تلك الصفات التى تؤهله لتربية وتقويم اخلاق التلميذ الذى بين يديه على تلك القواعد التى شرحتها ؟ — كلا ثم كلا . اننا اذن نسلم اولادنا فى انضر ايام حياتهم واحسن اوقات قابلياتهم ليبقوا على الحالة التى يرثى لها من الجهل وشكاسة الاخلاق . والعشر روبيات فى الشهر وحدها لا يمكن ان توجد لنا اولاداً مهذبين .

انى لا اخطو بعيداً عن مقام التربية ولكن اريد ان اجيب نداء ذلك الرجل الذي خاطبنا من أخريات الناس خطاباً مقتضبا قائلا : ان الكسب على الطريقة المشروعة اصبح امراً غير ممكن ولذلك قعدنا عن الكسب تورعاً وبعداً عن ارتكاب الشبهات فعلى ارباب الثروة واليسار ان يدفعوا

لنا زكاة اموالهم حتى نعيش :

ايها الرافع عقيرته بهذا القول وما حملك عليه الاخلع جلباب الحياء وتلبية نعيق سلطان الخمول والكسل لنقرع الابواب بعصا الفقر : اذا كنت تحب لنا ما تحب لنفسك - ولا نخالك الا كذلك - فمن اين نكسب وكيف نعيش وكيف يكون للأغنياء مال يدفعون منه زكاته للفقراء ؟ اذا كنت صادقاً فيما تقول ، فعلى م تطالب الاغنياء بفضلة مالهم المشوب بالحرام ؟

اذا تركنا الكسب من وجوهه الممكنة فكيف يحيا امثالك وكيف يبقى لنا شرف وجامعة وحمية عصبية ؟ ياسبحان الله ! ما كنت اظن ان احدا لا يردعه حاكم العقل والحياء عن ان يتفوه بمثل هذه الكلمات فى محفل عام كهذا . اننا وان كنا نخالف فى الرأى بعض مانهجته لجنة ندوة العلماء فاننا معترفون بالخدم الجليلة التى قامت بها وشاكرون لحسن مسعاها فى الاصلاح وترقية شؤون القوم . اذا كانت الغاية حميدة وكلنا يرمى الى غرض حسن فحبذا ناضل منا ومنضول . استحسنت هى طريقاً لخير الامة فنهجته ونحن استحسنا طريقاً فسلكناه والله سبحانه يوفق الكل الى ماالیه قصد

ولا بأس بان اقص عليكم بعض ماقد شاهدته فى (لكنهو) . فقد ساقتنى البواعث الى زيارتها منذ ايام وجمعتنى الصدف بصديقى الحميم القديم (مستر سايكس برنسيل لانار تيز كالج) فاخذ بيدى الى تلك المدرسة الشهيرة فشاهدت فيها ما بهرنى وسر ناظرى من رحب الموضع واتقان العمارة واحكام البناء وتنسيق الغرف وترتيب مجال جلوس الطلبة ونومهم واكلهم

ورياضتهم وحسن ادارة المعلمين والمستخدمين وما اشتملت عليه من مناظر النزهة والبرك الفوارة والحمامات ومحل العبادة

وبالجملة فانه لم يقع نظرى على شىء استحسنته الا انتقل بى الى احسن منه حتى كأنى فى جنة فيحاء فسيحة الارجاء ممتدة الفضاء كما هى ممدودة الظلال يتخللها نهر جار على ضفتيه اشجار مصفوفة على ابدع مثال فاذا سبح الطلاب خرجوا الى ملعب الرياضة والكرة

والخلاصة ان مدرسة كهذه مشتملة على ماذكرنا من المرافق والمنافع وانواع الرياضة والتعليم والتهذيب هى احسن معهد للطالبين . تنفعهم فى كل شىء ويعلق منها بعدها بهم كل شىء . وعلى هذا الوضع مدرسة كلكوتا ومدرسة فى بلاد فرنسا : اسس المدارس الثلاث كما تعلمون رجل واحد هو ذلك الخادم للانسانية (الجنرال كلاد مارتن) ولم يقتصر هذا الرجل العظيم على تأسيسها وتشييد مبانيها بل انه وقف لها من الاموال والواردات مايقوم بمصارفها ابد الآباد

والغرض من ذكر مدرسة (لكنهو) ان لا اشق عليكم بذكر ماشط وبعد عنكم . فاذا كانت هذه المدرسة على مرمى النظر منكم فتأملوا اصلحكم الله وأرجعوا الطرف الى هذه المدارس الثلاث وما ينفق عليها من الاموال الطائلة فى كل عام بل فى كل شهر بل فى كل يوم وتنهض بأعبائها همة رجل واحد .

ان للوسط الذى يعيش فيه الانسان اكبر تأثير عليه وخصوصاً فى ايام صباه . فالطالب الذى يتعلم فى وسط يروقه من كل وجه ينطبع فى نفسه

بالرغم عنه مثال ذلك الوسط وتستهويه محاسنه او عكسها . والمدرسة التى شرحت لكم مثالها هى خير وسط يشب فيه الناشىء ويؤثر مجلاه على نفسه. فابذلوا كل جهدكم فى ان يتعلم ابناؤكم قبل كل شىء فى مدارس منظمة منسقة كهذه كل شىء بها حسن فى عين من يراه فذلكم خير من ان ينشأ بين يدى ذلك الشيخ اوالبابو بالعشر روبيات فى مكان قذر مظلم ليس فيه مايروق العين ويستهوى النفس فضلاً عن حسن التعليم فى تلك وسوئه فى هذا

اسس بطليموس احد خلفاء الاسكندر المقدونى مدرسة فى الاسكندرية كانت جامعة بين فنون التعليم والتربية وانشأ بجانبها مكتبة احتوت على افيد كتب العلوم والفنون : بتلك المدرسة وهذه المكتبة لا غيرهما اصبحت الاسكندرية مدينة العلم وكعبة طلابه من كل فج قريب وواد سحيق . اصبحت المدينة بعد ذلك غاية مرمى كل قاصد فى علوم الفلسفة والطب والهيئة والرياضات كلها والموسيقى والشعر . فجمعت بين العلوم والآداب وكانت اجل معاهد العلم فى اوقات عديدة حتى ان جاليانوس معلمها الشهير الف اشهر كتبه وبطليموس الف مجسطيه فيها . منها اشرقت انوار فلسفة الاشراقيين حتى كأن الفلسفة كلها اسكندرية المهد . حيت الاسكندرية بمدرستها واحيت بعلومها مدنا شتى فى قرون عديدة ولا تزال تذكر بتاريخها العلمى المجيد من فضل مدرسة واحدة ومكتبة واحدة . فانظروا كيف تفعل المدرسة الواحدة فى العالم الكبير وفى الزمن الطويل ان شيدت على اساس متين واسلوب نافع . »

مؤتمر التربية الاسلامى

« فى مدراس »

(خطبة الرئيس)

يتذكر القراء مانشرناه فى مثل هـذا الوقت من العام الماضى عن مؤتمر التربية الاسلامى الذى انعقد فى رامبور تحت رئاسة العالم العامل (نواب عماد الملك سيد حسين بلغرامى الحيدر آبادى) ويتذكر القراء تلك الخطبة البليغة التى القاها حضرته فى افتتاح المؤتمر المشار اليه . وقد كان يوم السبت ٢٨ دسمبر يوماً مشهوداً فى مدينة مدراس حيث انعقد فيها المؤتمر الاسلامى للمرة الخامسة عشر من يوم تأسيسه . والذى يطالع الجرائد الهندية الاسلامية فى الاسبوعين الماضيين يجدها مشحونة بما التى فى المؤتمر من الخطب المهمة والمباحث الاسلامية والاقتراحات المختصة بكل مايرتبط بتربية المسلمين وترقية شؤونهم . ولكن انعقاد المؤتمر هذه المرة فى مدينة مدراس يمتاز عن غيره بنقطة واحدة كانت موضع الاخذ والرد بين كثير من نبهاء المسلمين هناك الا وهى كون الرئيس فى هذه المرة ليس مسلما ولكن انكليزياً . والسبب فى ذلك ان حضرة (القاضى بودام) الذي ترأس المؤتمر هذه المرة كان من قبل رئيساً لفرع مدينة مدراس . فلهذا السبب ولعدم وجود من يليق بين المسلمين فى إيالة مدراس لتولى رئاسة

مؤيد ٢٣ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ يناير سنة ١٩٠٢ عدد ٣٥٦٨ — ٣٥٧١

المؤتمر ترأس القاضى المشار اليه والقى خطبة افتتاحية لاتقل فى الاهمية عن خطبة العالم (نواب عماد الملك سيد حسين بلغرامى الحيدر آبادى) وقد استحسنها كل المسلمين هناك وشهدوا له بالفضل واعترفوا له بجزيل الخدمة .

ومما يمتاز به انعقاد المؤتمر هذه المرة ايضاً حضور كثيرين من كبار الانجليز ومن ضمنهم الحاكم العام لولاية مدراس فانه حضر جلسات المؤتمر والقى خطبة قصيرة قال فيها انه مشارك للمؤتمر فى مساعيه راض عن خداماته واعترف ان الحكومة تستقبل اعماله بكل سرور وانشراح .

ولما كانت خطبة حضرة القاضى بودام مهمة فى حد ذاتها لتعلقها بكثير من المسائل الاسلامية من جهة ولكونها ايضاحا لرأى باحث اجنبي عن المسلمين هناك يرى الامور بغير العين التى يراها بها المسلمون ويعتبر حكمه حكم المشاهد الخالى من الاغراض من جهة اخرى رأينا ان نبدأ بترجمة خطبته المذكورة قال :

انى اعتبر نفسى سعيدا ولى الشرف الاكبر بانتخابكم إياى لرئاسة مؤتمر التربية الاسلامى للمرة الخامسة عشرة من انعقاده . لكننى مع ذلك لا اجد مندوحة عن الاسف من اجلكم لاسباب كثيرة : منها انه لو كان رئيس المؤتمر من بينكم لكان احسن وانفع لانه بصفته واحداً منكم يحس بما تحسون ويألم بما تألمون وينظر كما تنظرون ويقدر الغاية المطلوبة من المؤتمر كما تطلبون ويرجو النتيجة كما ترجون فانه يقدر على مشاركتكم ويقوم بخدمتكم ، وكان يمكنه ان يخطب بينكم بلغتكم ويفهم الخطب التي تلقى بلسانكم ويلاحظ الاقتراحات التى تقدم منكم وكنتم تضعون

فيه ثقتكم وتنظرون الى آرائه بغير العين التى تنظرون بها الى آرائى وافكارى. وتعتبرونه غير الاعتبار الذي اخاف ان تنسبوه الى لكونى غير مسلم مثلكم. ولكن من الاسف ان المسلمين فى هذه الولاية لا رئيس لهم يلجأون اليه فى مثل هذه الظروف لانهم مختلفون منشقون كل يشايع حزبا ويعضد فريقا. فلذلك كان من الصعب جدا أن يتم الوفاق على رئيس للمؤتمر. وعسى ان انعقاد مؤتمر التربية فى عاصمة هذه الولاية يكون سببا فى جمع كلمتهم وارتباط جامعتهم ووسيلة لبث روح الوطنية فى افئدتهم ان لم يكن من كل الوجوه فعلى الاقل فيما يؤدى الى رفع شأنهم واعلاء مقامهم وطرح اسباب الشقاق والشحناء من بينهم ليقوموا بما يعود بالخير عليهم وعلى ابنائهم واخوانهم فى الدين والجنس

لهذه الاسباب قبلت رئاسة المؤتمر مضطراً بالرغم عنى بعد التردد الكثير. قبلت الرئاسة املاً فى ان اكون سبباً فى افادة الامة الاسلامية فى هذه البلاد عسى بذلك ان اؤدى خدمة تقوم مقام ترأسى على مؤتمرهم مؤملاً منكم ان تسبلوا ذيل العفو عن هفواتى ولا تقارنوا اقوالى الركيكة بما التى على مسامع اعضاء هذا المؤتمر فى جلساته السابقة من خطب البلغاء وملح الحكماء والفصحاء

منذ عقد المؤتمر فى العام الماضى لم يقع فى العالم الاحادثان مهمان بالنسبة لنا ولكم: احدهما وفاة جلالة الملكة فكتوريا اول امبراطورة لهذه الديار والتى كانت اخلاقها الشخصية مثال آداب المدنية الحقة والتى كانت مشهورة بحبها لرعاياها الهنود وخصوصاً المسلمين. وثانيهما وفاة الامير عبد الرحمن

خان جاركم وصديقكم الذي اشتهر بالسياسة والحكمة . فأرى من الواجب
عند اجتماع هذا المؤتمر ان يعلن اسفه على وفاة هذين الملكين الجليلين
واكتفى بان اشير الى ان فى كلا الخطبين مصابا لنا جميعا
كلكم تعلمون علم اليقين ان مؤسس هذا المؤتمر هو المرحوم (السيد احمد
خان بهادر) الذى اسس ايضاً (مدرسة عليكدة الاسلامية). واقول انه لاتوجد
ذكرى ناطقة ولا تمثال حى ثابت اعلى وارفع من هذا التذكار الذى شيده
بيده . ففى كل عام يجتمع قادة الافكار من المسلمين فى مدينة من مدن
الهند ملبين لندائه للبحث فى كل مايتعلق بالتربية للناشئة ومايخص المسلمين
من المسائل المهمة الاجتماعية وغيرها . هذا والمدرسة تربى كل يوم افراداً
من الناشئة الاسلامية يكونون رجال المستقبل النافعين الناجحين . كذلك
اقول ان بقاء هذا المؤتمر حياً نامياً يرجع الى مساعى الذين لبوا دعوته فى
هذا العام واتوا اليه من كل فج عميق للقيام بما تفرضه عليهم جامعتهم ودينهم
ان الغرض الذى يرمى اليه هذا المؤتمر الاسلامى هو نشر التربية
العصرية اللازمة لهذا الزمن بين افراد الامة الاسلامية فى الهند مع مايصلح
وينفع من علوم الشرق وآدابه المشهورة . ولهذه الاسباب يلزم ان يشارك
هذا المؤتمر فى مقاصده كل من يريد الخير والاصلاح للامة الاسلامية
ومن اكبر الدلائل على نهضة المسلمين أنهم بعد ان اهملوا وسائل التعليم
التى وضعتها امامهم الحكومة قاموا اليوم يسعون للبحث عن انفع الوسائل
لتربية ناشئتهم الاسلامية كما يبغون لعلمهم ان نظامات المدارس التابعة
للحكومة لاتصلح لهم تماما لاسباب تعرفونها . وقد كان المرحوم السيد

احمد خان اول من تنبه الى ذلك وعرف ان المسلمين نافرون من العلوم العصرية فاراد ان يجذبهم اليها ويعرفهم ضرورتها لهذا الزمن . فكان اول عمله السعى فى تأسيس (مدرسة عليكده) التي بدأت تعلم المسلمين قيمة الاعتماد على انفسهم والسعى لنجاحهم بانفسهم وصارت تخرج شبانا عارفين بمقدار الواجب عليهم . كذلك كان المؤتمر الاسلامى فى كل جلساته الماضية واسطة كبرى لبث هذه الروح التى يؤمل كلنا ان تقوى وتشتد فى نفوسكم وتأتى بالفائدة المطلوبة

اجل اذا كان المسلمون يريدون ان يعودوا الى سالف مجدهم وسابق عزهم فليضعوا نصب اعينهم صفتى الاعتماد على النفس والسعى بالنفس . وحيث ان هذا المؤتمر مؤسس على هذا المبدأ ناشىء على هذا المنهاج فهو جدير باعجاب كل العقلاء ومساعدة كل انسان يحب ان يجعل السعى والعمل والاجتهاد والتيقظ مكان الكسل والخمول والنوم مما اشتهر المسلمون به فى العصور الاخيرة : وانتم تعلمون انه فى مزدحم هذه الحياة يخلى الضعيف للقوى ويقضى المتيقظ على النائم وكل ما يقال عن الافراد يقال عن الامم سواء بسواء

ولا اظن انه يوجد من يشك ولو لحظة فى ان هذا المؤتمر يؤدى للمسلمين خدمة كبرى . اذ قد نام المسلمون بينما ارتقت الامم الاخرى وساروا سيراً بطيئاً بينما كان غيرهم يعدو عدواً . وقد كان للمسلمين من زمن قديم مركز عال فى هذا الوجود وكانوا امة راقية سامية . فاى داع يمنعهم من ان يصلوا يوماً من الايام الى درجتهم الاولى ؟ انما يتعلق هذا الأمل

بهم انفسهم فلن يخدم احد أحدا

كان المسلمون اولا ذوى نفوذ وسطوة . ومع انهم كانوا امة حربية رجال سيف فقد كانوا ايضاً رجال قلم وارباب علوم . طالما اشتهروا فى الفلسفة والآداب والعلوم الرياضية والطبيعية وكانت لهم المدارس الشهيرة فى القاهرة وبغداد وسمرقند حيث كان الطلبة يزدحمون على ورود مناهل العلوم . وهذه بلاد الاندلس كانت ارقى بلاد العالم فى المدنية والعلوم. ومن العدل ان تتذكروا هذا المجد القديم وتنشدوه . لا تفتخروا به كما يفتخر بالعظم الرميم ولكن ليبعث فيكم روح العمل والتشبه والهمة العالية

حقيقة ان كنتم تتذكرون الماضى العظيم وتكتفون بلذة الذكرى وتنامون بعدها على اصمخة آذانكم فالاولى بكم ان تنسوا الماضى وان تعرفوا ان مانقل اليكم عن مجد آبائكم محض اقاويل ملفقة . واما ان كنتم تتخذون الماضى عبرة وتتشبهون بالآباء والاجداد وتسعون لنيل ما ادركوه من قديم الازمان والآباد فافتخروا بماضيكم فهو جدير بالافتخار .

وعلى كل حال فالماضى ماض والحاضر حاضر وقد مرت عليكم السنون الطوال وانتم لاهون غافلون حتى اذا تيقظتم من سباتكم العميق وجدتم الامم الاخرى التى هى دونكم قد اخذت بالقسط الاوفر من التقدم وسبقتكم بشوط بعيد فى الثروة والقوة والعلم . ويعجبنى قول (النواب عماد الملك السيد على بلغرامي) فى الخطبة التى القاها فى العام الماضى على هذا المؤتمر حيث قال : « غرست بذور التأخر والاضمحلال فى اليوم الذى غفلت فيه عيوننا ونامت عقولنا واكتفينا بمجد آبائنا واسلافنا . عند ذلك فقدنا الشهرة

فى إدراك العلوم وعند ذلك ضاع كل شىء وتراخت اعصاب الامة وقواها الحيوية وفقدنا الشجاعة والنشاط والمطامع ومعها فقدت الثروة والقوة والحياة . ومن الغلط ان يتصور بعضهم ان المسلمين فقدوا كل مابقى لديهم بعد ان فقدوا قوتهم والتاريخ شاهد عدل على اننا بدأنا بفقد كل شىء حينما اهملنا كل الوسائل التى تحفظ قوام القوة . »

وفى هذه الايام اصبحت العلوم قوة ولا يتأخر فى ميدان الحياة الا الجهلاء الاغبياء . اما الذين يسيرون مع تيار الزمن ويحصلون على كل ما فيه من العلوم والمعارف والمطالب فهؤلاء هم الذين يصلون الى اغراضهم ويدركون امانيهم ويحصلون على الثروة والجاه والشرف . وان امثال هذه المؤتمرات هى التى تنهض بكم وتعلى شأنكم وتعيد لكم سابق مجدكم وعزكم. وان المحور الذى دار عليه المؤتمر منذ انشىء هو ان المسلمين فى الهند ليسو فى درجة تماثل اخوانهم من بقية رعايا جلالة الملك. وانه اذا لم يجتهد المسلمون فى رفع شأنهم حتى يساووا غيرهم من الانكليز وسواهم فلا يطمعون فى المساواة بغيرهم . ومما يعلى قدر المسلمين فى اعين العالم انهم فقهوا هذه الحقيقة من انفسهم بعد اعتمادهم على الحكومة الانكليزية وثقتهم التى علمهم اياها المرحوم السيد احمد خان الذى ادرك قبل غيره انه فى الوقت الذى يصبح فيه المسلمون فى درجة مساوية لاخوانهم الانكليز والهندوس فى العلوم والمعارف والاستعداد فانهم يقفون مع الجميع فى صف واحد

والآن نسأل كيف يكون الوصول الى هذه الغاية المتمناة ؟ - اقول ان امثال هذه المؤتمرات الاسلامية هي من اكبر الوسائل لنيل هذا الغرض لانه

بواسطتها يجتمع المسلمون فى صعيد واحد ويتبادل قادة افكارهم اطراف البحث فى كل مايتعلق بالتربية ومستقبل امتهم • هنا حيث يجتمع مسلمو الشمال بمسلمى الجنوب والشرق والغرب تأتى الفائدة وتثمر المساعى لأنهم متى رأوا انفسهم مشتركين فى عمل واحد يعرفون قيمة الاتحاد ويدركون ان على عاتقهم واجبا يجب ان يقوموا به جميعاً وان كل فرد منهم مكلف بأن يجهد نفسه آناء الليل واطراف النهار ليرفع شأن امته . ومتى اتحدت كلمتهم نشأ من ارتباطهم كل صالح ونافع لكم.

ومن الآراء الاساسية عند قادة المصلحين من زعماء المسلمين ان نظام التربية الذى تسير عليه مدارس الحكومة فى الهند غير صالح لهم ولا يؤدى الى الغاية التى رسموها لمستقبلهم، وانه يجب ان يجهدوا انفسهم بكل الوسائل لجعل التربية والتعليم صالحين لحاجاتهم. ويجب ان تنشر هذه الفكرة بينكم وهى ان مدارس الحكومة كما قلت لا تكفيكم حتى يمكن لامثال هذه المؤتمرات ان ترسم الخطة اللازم اتباعها . نعم وان كانت الحكومة منذ تولى شؤونها اول حاكم اتى الى هذه الديار الى الآن ميالة الى نشر التربية والتعليم بين رعاياها ، الا ان ذلك لا يمنعكم من الاعتماد على انفسكم لايجاد الاصلاحات فى التربية اللازمة لكم. واسمحوا لى ان اقتطف من خطبة (القاضى امير على) التى القاها فى العام الماضى على هذا المؤتمر الجملة الآتية لان عبارته فيها تكون اوقع فى نفوسكم من غيرها قال :

« نحن اليوم على عتبة باب قرن جديد وكل انسان لايسعه الا ان يستقبله بقلب ملؤه الفرح والسرور بما يتخيله من الآمال التى يمكن

تحقيقها والغايات التى يؤمل الوصول اليها عند نهاية هذا القرن الجديد .
يجب ان يكون اعتقاد الناشئة التى حضرت افتتاح هذا القرن انه عصر لايفوذ فيه الا كل معتمد على نفسه وانه يترتب على مساعى كل فرد منهم وقيامه بواجب مستقبل الامة التى هو فرد من افرادها. ويجب كذلك ان تضع الناشئة نصب عينيها ان هذا القرن سيكون قرن تقدم وارتقاء فى العلوم والمعارف بين ابناء هذه الامة . وانتم اليوم فى ايدى حكومة عادلة تحب الخير والنجاح لكم. ولتكونوا على يقين انها من افضل الحكومات وأميلها الى نشر راية العدل والتوفيق بين رعاياها . وانما اقول هذا توطئة لما اريد ان القيه عليكم اذ انتم تعلمون ان الهنود ليسوا امة واحدة وانهم يتألفون من عناصر مختلفة فى الاديان والعادات وكل عنصر من العناصر منقسم الى شيع ومذاهب دينية واجتماعية وان لكل عنصر آمالا ومقاصد خاصة به . لهذا اصبح الواجب الملقى على عاتق الحكومة ثقيلاً ولا يوجد رجل ذو ذمة صادقة ينكر على ان الحكومة مع ذلك تعمل كل ما فى وسعها لاتباع خطة عادلة حرة لا تميل الى فريق دون فريق. لكنكم تعلمون من ذلك ان الحكومة لاتقدر ان تعضد فريقا دون آخر وانه من الواجب على كل عنصر ان يسعى بنفسه لاصلاح حاله وترقية شؤونه. ولا أنكر عليكم انه ربما ظهر فى بعض الاحايين ان الحكومة عضدت عنصراً او رفعت شأن فريق. لكن متى اعتقدنا ان ذلك قد وقع بلا غرض او بدون ظلم يتضح لنا ان الحكومة كما اعتقد وكما اعرفه بالتجربة لاتشايع حزبا ولا تميل الى عنصر مخصوص دون سواه : متى عرفتم ذلك فلا تنتظروا من الحكومة ان تغير

نظام التربية والتعليم فى مدارسها لاجل مصلحتنا وحدنا . »

هكذا قال (القاضى امير على) وهكذا اقول لكم . وانه ان كان التعليم فى مدارس الحكومة الهندية صالحا لعامة رعاياها فليس من جهة اخرى بصالح لكم تماما . ولذا بقى عليكم ان تسدوا الخلل بايديكم . واعتقد ان الحكومة لو امكنها ان تساعدكم دون ان تظلم بقية رعاياها من الطوائف الاخرى لفعلت ذلك من تلقاء نفسهامع السرور والرضي

صرح اللورد كورزون (فى الخطبة التى القاها على طلبة مدرسة عليكيده وترجمناها عندئذ فى المؤيد)(*) انه لا تكون التربية كاملة مالم تؤسس على مبادىء الدين . تلك حقيقة لا يعارض فيها احد لانه لا تكون التربية كاملة او مفيدة ما لم ترم الى تقويم الاخلاق والنفوس. والتربية الخالية من المبادىء الدينية انما يقصد بها تربية الملكات العقلية والجثمانية لتؤدي الوظيفة المطلوبة منها والغاية التى تسير فى طريقها . لكن التربية بمعناها الحقيقى لها مقصد اوسع من ذلك وغاية ارفع واعلى . فان الرجل قد يكون عالما نبيهاً لكنه فى حاجة الى من يدبر قواه العقلية ويقودها فى طريق يؤدى الى مصلحة العنصر الذى هو منه فضلا عن مصلحته الشخصية . وانه بغير التربية الكاملة قد يكون سببا فى جلب الضرر بدلا من الخير الى امته ونفسه. وكثيراً ماتكون تربية الشخص وتعليمه سببا فى زيادة جلب الضرر وجر البلاء والمصائب على قومه ونفسه . واذكر لكم حادثة وقعت تحت نظرى من هذا القبيل فى انكلترا :

(*) راجع هذه الخطبة بتمامها فى هذه المجموعة

منذ بضع سنوات اتهمت احدى شركات السكك الحديدية احد عمالها بانه زور تذاكر عديدة وقد كان هذا المتهم احد موظفى قلم الهندسة. وكان من ابرع العمال وانبههم ولكنه كان مضطراً الى الانتقال بعد تأدية وظيفته الى جهة بعيدة عن محل شغله . ولما كان راتبه قليلا لا يكفى لحاجاته ونفقات الانتقال زور تذاكر لسفره . ولكنه اتقن التقليد وصارت التذاكر المزورة اشبه بالحقيقية فى حروفها ورسمها وشكلها حتى ان الشركة مع علمها ان هناك غشا لم تقدر ان تعرف كيف دخل عليها هذا الغش ولا اى التذاكر مزورة وحتى انه لما جاء وقت المحاكمة ووضعت التذاكر المكذوبة بجانب الحقيقية لم يقدر القاضى ان يميز بينهما . ثم حكم على الرجل بمدة سجن طويلة وثلم شرفه ولم يعد له ادنى امل فى نيل وظيفة مثل وظيفته السابقة التى هو جدير بالحصول على مثلها واعلى منها : وهذا الرجل تربى تربية طيبة بمعنى مخصوص، ولكن ليست التربية التى تجعله عضوا نافعا فى الهيئة الاجتماعية . بل بالعكس جعلته ضررا عليها وداء فى وسطها . ولو انه تربى التربية الكاملة بالمبادىء الدينية لكان مع اليقين اصلح وانفع ولوجد في ذمته مايردعه عن الغش والتزوير .

ولا تكون التربية كاملة نافعة مؤدية للغرض الحقيقى مالم يكن من نتائجها تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وارشاد الاميال الانسانية وترقية العقول البشرية . وانى اعرف ان المسلمين يهتمون بالعقائد الدينية ، الا ان المقصود يجب ان يكون عند الذين يطمحون الى ايجاد الرجال ذوى النفوس الكبيرة التربية الدينية لتقويم الاخلاق بها لا العقائد وحدها

من الراسخ فى الاذهان بل من القضايا المسلمة بالبداهة ان كل مسلم عارف بمنافع التربية راغب فيها له ولا بنائه . ولكن هل هذا ينطبق على الواقع؟ الا نرى كثيرين من اولاد المسلمين الراقين نوعا يلعبون فى الطرق والحارات وهم صغار ويقضون العمر فى سفاسف الامور وهم كبار؟ وان لم يكن كذلك افلا نجد ان اغلب المسلمين يكتفى بارسال ابنه الى اقرب مكتب ويقتنع بانه سلم ولده وفلذة كبده الى فقيه او معلم قريب منه؟ اهذا كل الواجب وبعبارة اخرى اليس الواقع كذلك؟ بل اليس الكثيرون من المسلمين يهملون اولادهم بعد المدارس ولا يعيرونهم ادنى التفات لتقويم اخلاقهم او مراقبتهم؟ او لا يكتفى المسلم بان يرى ابنه قد تعلم مبادىء القراءة والكتابة وبعض العلوم السطحية ويظن بعدذلك ان ابنه قد حصل على التربية اللازمة بل الكاملة؟ مثل هؤلاء الاولاد فى الحقيقة يشبون جهلاء يقودون انفسهم الى مهاوى الضلال والفساد. والذنب ذنب الآباء حقيقة لانهم لم يكلفوا انفسهم مشقة البحث عن انفع السبل لتربية اولادهم او ما هى الوسائط اللازمة لحمايتهم وتربيتهم التربية الحقة

ولا اشك فى انكم تفهمون ان الغرض من التربية الدينية فى اول تعليم الاطفال هو لكى تنطبع فى عقولهم المرنة مبادىء الفضيلة والتقوى التى تؤسس عليها دعائم التربية الحقة النافعة فى مستقبل الايام . واؤكد لكم ان هذه هى الطريقة المثلى : ولكن يجب ان لا تقف التربية الدينية عند هذا الحد اى حد الطفولية بل يجب الاستمرار على تلقينها حتى اذا ارتقى عقل الناشئة تمو الفضيلة فيه كما تمو جسمه ويشب بعد ذلك على المبادىء العالية

والمقاصد السامية مع شرف الغاية وطهارة الذمة. وفى بلادنا نحن الانكليز يتلقن الطفل وهو فى حجر أمه كل ما يهذب نفسه ويقوم اخلاقه ويؤسس فى قلبه مبدأ الشرف ودعامة الادب. وحينما يأتى الزمن الذى يذهب فيه للمدرسة يرسل عادة الى مدرسة داخلية حيث تكمل تربيته الدينية ويلتفت المعلمون الى ترقية آدابه النفسانية حتى تنغرس فيه وهو فى المدرسة مبادىء النظام وآثار الاجتماع وغير ذلك من الصفات التى تنشأ من وجوده فى وسط شريف مع اساتذته ومعلميه والطلبة امثاله مما يكون سياجا له من الوقوع فى الشرور والمفاسد بعد المدرسة.

ولا انكر ان كثيراً من الناشئين بعد ان يخرجوا من المدارس ينسون ما تأسس فى نفوسهم من الفضائل وينساقون فى طرق المفاسد عند احتكاكهم بالعالم وما فيه من المقدمات التى تؤثر على عقول الشبان بنوع خاص، ولكن هذا ايضاً لا يكون الا لنقص سابق فى ناموس تربيتهم. وانني اقول لكم صريحاً ان افضل مدرسة لتعليم الطفل هى حجر أمه حيث ينشأ فيه على الفضائل وتنغرس فى نفسه المبادئ الشريفة. وان الامة التى لا تعظم مقام المرأة وتعلى شأنها لا يمكن ان تكون امة راقية. وكل امة لا يشترك فيها النساء مع الرجال فى الاميال والمقاصد ويلتفتن الى تربية الابناء فلا بد لها من السقوط والاضمحلال مهما كانت راقية عالية. فلذلك ارى من اكبر الواجبات على المؤتمر ان ينظر فى شأن تربية البنات بل ارى ان يجعل ذلك من اول واجباته. واقول ايضاً ان اكبر عامل فى ترقية الامم يرتبط بالنساء وتربيتهن. وسواء كانت نساؤكم على درجة طيبة من التربية والتعليم

اولا فذلك مما اتركه لكم للبحث فيه واكتفى بان استلفت انظاركم الى هذا الامر المهم

يقولون ان الطفل هو والد الرجل. وفى هذه البلاد ينشأ الطفل وامامه عقبات شتى اكثر منها فى جهة أخرى. والسبب فى ذلك ان الطفل محتاج الى تعلم اللغة الهندوستانية لضرورتها له فى مستقبل الايام ومحتاج ايضاً الى تعلم اللغة الانكليزية وهذا بلا شك من العقبات الكبرى. ولا ارى لهذا المشكل حلا سوى زيادة العمل والاجتهاد. والعقبة الثانية تتعلق بالتربية الدينية لان المدارس التى يمكن ان ترسلوا اولادكم اليها خالية من التربية المذكورة لكونها مدارس عامة لجميع الطوائف. والمدرسة النافعة لمستقبل الناشىء من المسلمين هى المدرسة التى تكون التربية الدينية الاسلامية فرعا من فروع التعليم فيها.»

ثم بحث الخطيب فى مسائل كثيرة تتعلق بالمدارس المخصوصة فى ولاية مدراس مما لايهم القراء فى مصر فنكتفى بالاشارة اليها الى ان قال:

«يقولون لى ان الامة الاسلامية فى هذه الديار فى فقر مدقع. واقول ان السبب فى ذلك ان المسلمين فاتتهم فرص كثيرة لم ينتهزوها وانكم اذا لم توطدوا العزائم على النهوض من وهدة الفقر التى سقطتم فيها فلا امل لكم فى نجاح. والسبيل الممكن لذلك هو انكم تعملون كل مافى امكانكم لتخليص ابنائكم من قيود الجهل ليقوموا بما لم تقدروا ان تقوموا به ولاتفوتهم الفرص التى فاتتكم. والذى يراقب عاداتكم يرى انكم تنفقون الاموال الطائلة فى الاحتفالات والمظاهر الفارغة مما لايفيدكم ولايفيد ابناءكم. فهل

يزيدكم شرفاً ورفعة ان تنفقوا الاموال فى العادات حتى يقول الناس ان هذا الرجل غنى وعظيم ؟ — لا اقول لكم اتركوا عاداتكم واحتفالاتكم اللازمة ولكن انصحكم ان تقتصروا منها على ما يفيد ولا يؤدى الى انفاق المال فى السفاسف . وليكن ماتقتصدون من ذلك مقصوراً على تربية ابنائكم وتعليمهم . اتحدوا فيما بينكم وليكن اغنياؤكم وكبراؤكم نموذجاً لاخوانهم فى الاقتصاد . وليعضد اغنياؤكم الفقراء منكم فى طلب العلوم والمعارف . وهذا الوقت صالح لكم فلا تضيعوا الفرص التى امامكم ولا تتأخروا الى الوراء ابداً فان الحيوان اذا اجفل سبقه سواه وحاز قصب السبق . اسسوا لكم مدارس كالتى اسسها المرحوم السيد احمد خان

ايها السادة : انكم قدمتم من كل بقعة من بقاع الاقطار الهندية لحضور هذا المؤتمر فاسمحوا لى ان اشكركم بالنيابة عن اخوانكم المسلمين فى هذه الولاية فانهم فى اشد الاحتياج الى نصائحكم وتجاربكم المفيدة

يتضح لكم مما قلته ان افضل مدرسة لتعليم ابناء المسلمين هى المدرسة التى تجمع فى نظام تعليمها بين التربية الدينية والعلوم العصرية . لانهم فى مثل هذه المدرسة يبتدئون فى تلقى مبادىء الفضيلة وتقوم اخلاقهم فى صغرهم بينما يتعلمون العلوم النافعة لهم فى مستقبل الحياة . هذا هو رأيى واظنكم توافقوننى عليه . ثم ازيد عليه ان الطريقة التى تسيرون عليها فى التربية الدينية غير كافلة بالغرض لانها مقصورة على تلقين معلومات دينية وعقائد تعلق بالاذهان ولكن لاتهذب النفوس كما هو المقصود . واذا جعلتم تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق مندمجاً فى تعليم دروس العلوم العصرية فانكم

تحصلون على مرادكم وتقتصدون فى الزمن. اذ بدلا من ان تبتدئوا بالتعليم الديني وحده وتمضون فيه الازمان الطويلة ثم تعكفوا بعد ذلك — اى بعد ان يشب الناشئون — على تعليم العلوم العصرية تضيعون الزمن فى وقت يكون ابناء الطوائف الاخرى قد حازوا الشهادات العالية وانخرطوا فى سلك العاملين فى الحياة، بل ربما يكونون قد وصلوا الى درجات عالية فيها وتكونون بهذه المثابة اشبه بمن يسابقه غيره فى ميدان واسع. فهذا يسير فى ارض سهلة وطريق ممهد وانتم تسيرون فى سبيل كله عقبات وعوائق. واذا انتم اتبعتم الخطة التى رسمتها لكم فانكم تمهدون الطريق لانفسكم وتتساوون بغيركم. ولهذا السبب ارى ان مدرسة عليكدة التى تسير على هذا النظام من انفع المدارس للمسلمين: وحبذا لو كان لكم فى كل ولاية مدرسة مثلها.

والسبب فى كونها كذلك انها مدرسة اهلية اسسها المسلمون بانفسهم ولهم. فانتم على ذلك تحتاجون الى مدارس تكون ملكا لكم تسير على النظام الذى ترونه نافعاً ناجحا. ويكون فى كل مدرسة اماكن لسكنى الطلبة تحت رعاية الاساتذة الفضلاء الذين يكونون حراسا رقباء على التلامذة ويكونون نموذجا للصفات الفاضلة وقدوة فى مكارم الاخلاق

ولا تظنوا ان طائفة من الطوائف او الحكومة أيضا تعاكسكم فى مساعيكم. بل بالعكس متى وجدوكم تعملون كل ما فى امكانكم وتجهدون انفسكم لا يستريح لكم بال ولا يستقر لكم خاطر فانهم يكونون معجبين بكم ان لم يكونوا من انصاركم. فالهندوس والطوائف الاخرى لا يبغضون ان يروا اخوانهم فى الوطنية ناجحين مجتهدين ليتكون منكم ومنهم عمال ذوو

كفاءة ينهضون بالامة الهندية كلها الى ذرى السعادة والتقدم

ويجب عليكم ان لا تستبعدوا الغاية وتخيلوا الوصول الى المقاصد امراً مستحيلا فمن جد وجد ومن سار على الدرب وصل . ولا تعتذروا بقولكم (اننا فقراء) وتطلبون من الحكومة ان تكون وصية عليكم سائرة بكم: ان ذلك امر مستحيل . لكن تيقنوا ان الحكومة لا تتأخر عن مساعدتكم متى رأتكم تعملون لانفسكم .

وحيث كان الشرق فى الازمان الماضية منبع العلوم ومشرق شمس العرفان فقد اصبح الغرب هو محل مقتبس المعارف فى هذا الزمان، فيجب ان توجه عنايتكم الى الاخذ من علوم الغرب ومعارفه . هذا فضلا عن ان الحكومة التى تدير شؤنكم غربية انكليزية وكل هذا دليل على انه يلزمكم ان تأخذوا بالعلوم التى تفيدكم لدى هذه الحكومة لغة ومعارف

وانى اعرف انه يوجد بينكم من ينظر الى علوم الغرب بعين السخط ويخاف منها ويقول ايضا ان كل ما يلزم للدين والدنيا موجود فى علوم العرب. وعسى ان هذه الفكرة تكون آخذة فى السقوط والاضمحلال وان المتمسكين بها قلال العدد . وان كان هذا الفريق يخاف من علوم الغرب العصرية ظنا منه انها تؤثر على الدين الاسلامى وتضر به فانا اقول له اطمئن على دينك فالاسلام باق لا يتأثر بشىء من هذا والاسلام دين ليس فيه ما يعارض العلوم ابداً لانه دين عظيم متين يحث على ترقى العقل فى المنطوق والمفهوم وسيبقى بينكم من علماء الدين من يحافظ على الدين دواما. بل اقول ان زيادة ترقى العقل فى العلوم العصرية والمعارف الجديدة مما يساعد على

تقوية الدين فى النفوس وانزاله المنزلة التى يستحقها. اذا تقرر هذا لديكم وان
لاخوف على الدين اصبح من الواجب عليكم ان تأخذوا من العلوم العصرية
وصنائعها بالقسط الاوفر لتفوزوا بمعارفكم بين الامم كلها

وفى الختام اقول لكم ايها السادة ان وجودكم فى هذا المؤتمر يدلكم
على فائدة اتحاد المسلمين . ولذا اشير عليكم ان تزيدوا فى اهتمامكم بالمؤتمر
فتؤسسوا له فروعا ثابتة فى كل مدينة تجمع بين اعضائها اهم رجال الاسلام
حتى تصبحوا جميعا مرتبطين بروابط لاتنفك ابداً، او بعبارة يصبح المسلمون
كلهم فى كل بقعة من بقاع الهند ضمن دائرة واحدة يشعر كل فرد منهم بما
يشعر به الآخر. وفضلا عن ذلك فانى اقترح عليكم ان يكون لكم اكتتاب
اسلامى عام تقدم اليه تبرعات اعضاء المؤتمرات الفرعية، وان يبقى باب هذا
الاكتتاب مفتوحا على الدوام لمساعدة مدرسة عليكده وتأسيس المداس
اللازمة لكم فى كل الولايات. ومن لايقدر على دفع الاموال يجود بنفسه
لخدمة امته وتقديم النصائح مع السعى المتواصل

ايها السادة : اسمحوا لى ان اشكركم مرة ثانية على تكرمكم بالاصغاء
لما القيته عليكم . وقد اطلت الكلام كثيرا عما يختص بهذه الولاية
ومدارسها، ولكن الم اكن محقا فى ذلك؟ — واعرف اننى قلت بعض
الشيء الذى لايسركم، ولكن اليس من وظيفة الصديق ان يحذر وينبه
بدلا من ان يتملق ويفرح بالفاظ لطيفة لاتفيد ألبتة؟ - اننى صرحت لكم
بما احس به من صميم فؤادى وما اشعر به نحوكم وقلت لكم الحقيقة فى ثوبها
العارى عن التنميق والتزويق لكى تسعوا بانفسكم الى مصلحتكم فانكم ان لم

تخدموا انفسكم لا يخدمكم احد . وقلت واقول لكم ان الحكومة لا تساعدكم فقد عملت الواجب عليها، وانكم اذا لم تنفضوا غبار الكسل عنكم ، واذا لم تنفقوا اموالكم وتقدموا كل ما يجب عليكم ، واذا لم ترتبطوا ببعضكم ، واذا لم تؤسسوا مدارسكم فان الحكومة تبقى بعيدة عنكم : فلهذا انصحكم ان لا تضيعوا اوقاتكم فى المناقشات والجدال وان تتفقوا على عمل فذلك انفع لكم من طويل الكلام لكى تشهد الحكومة وتشهد الطوائف الاخرى ويعترف العالم اجمع ان مسلمى الهند ليسوا امة خاملة جاهلة . »

خطبة (*)

(حضرة العالم الفاضل خوجة غلام الصقلى)

(المؤيد) نشرنا ترجمة خطبة رئيس المؤتمر التى كان لها احسن الوقع عند جمهور القراء ووعدنا بترجمة كل ما نراه مفيدا من الخطب والمناقشات التى تلقى او تدور فى المؤتمر المذكور . ولا يخفى ان كثيراً من اعمال المؤتمر ومذاكراته تتعلق بمسائل هندية بحتة لا تهم المصريين كثيراً . ولكن يوجد بعض امور عمومية مثل المبحث الذى نترجمه للقراء اليوم يهم اهل الهند وغيرهم :

ففى الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر اقترح حضرة الفاضل (خوجه

(*) مؤيد ١١ و ١٢ فبراير سنة ١٩٠٢ عدد ٣٥٨٣ و ٣٥٨٥

غلام الصقلى) عمل شىء يؤدى الى الاصلاح الاجتماعى بين المسلمين. والمراد هنا بالاصلاح الاجتماعى هو تحسين العادات وترقية شؤون العائلات والمجتمعات وكل ما يرتبط بالحياة الحقيقية للامة. وقد عضده فى هذا الاقتراح حضرة الفاضل (السيد عبد الحق) ناظر المدرسة الحربية بحيدر آباد. وقبل اخذ رأى الاعضاء فى هذا الموضوع التى حضرة مقترحه الخطبة الآتية التى كان لها الوقع الحسن فى نفوس الحاضرين قال:

« ايها السادة:

ان ما اقترحته عليكم من اهم الامور وانفعها. ولا اشك فى ان بعض الافراد الذين يميلون الى المحافظة على كل قديم والتمسك بكل مألوف معتاد ينفرون من كلمة اصلاح ويقابلون اقتراحى بآذان صماء. واعترف لكم صريحاً باننى وقفت بين الاقدام والاحجام عندما اردت ان ابدى لكم هذا الاقتراح لعلمى انه ربما ادى الى انشقاق وانقسام بينكم ويكون موقفى بينكم اشبه بالقابض على الديناميت الذى ترتجف من هول وقعه القلوب. ولكننى اكتفى بان اعيد عليكم ماقاله قبلى رجل غير محبوب من قومه لغرابة افكاره حيث قال لسامعيه واخوانه فى مبدأ كلامه: « ايها السادة: استمعوا الىّ اولا وان شئتم بعد ذلك فاقتلونى. » ان العمل فى طريق الاصلاح الاجتماعى معناه التربية العامة للامة الجاهلة. وأنا موافق مع اخوانى المسلمين على ان التربية ضرورية للناشئة الاسلامية وانه يجب السعى المتواصل فى نشرها. ولكننى على يقين ايها السادة من انكم لاتختلفون معى. ومن ذا الذى ينكر فى هذا الزمن الراقى فى المدنية ان التربية ليست

مقصورة على الكتب والدفاتر ؟ والا لاعتبرنا امة سقراط وافلاطون وارسطو امة جاهلة لانها لم تتعلم من الكتب . ولديكم مثال كبير فى قوله تعالى فى القرآن الشريف « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون » فاذا كان المراد ان تعليم الكتاب والحكمة والتزكية من الكتب والدفاتر فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يعلم شيئا لاننا نعلم انه كان رسولا اميا

وانتم تعرفون ايها السادة ان احدى وسائل نشر التربية والتعليم تكون بالمباحثات والمناقشات والخطب والوعظ والارشاد والجرائد والسعى المتواصل فى التهذيب العام . ولانطلب منكم الا ان تأخذوا على عاتقكم تهذيب الذين لايقدرون على الذهاب الى المدارس وتكونوا لهم نموذجا فى الاعمال والاخلاق . وعلى فرض التمكن من التعليم فى المدارس فانها لاتكفى لنشر الآداب العامة واقتلاع جذور العادات القايمة السخيفة

واذا انتم لم تنهضوا نهضة فى طريق الاصلاح الاجتماعى فربما يأتى وقت لايمكن فيه الخلاص من الادواء التى تمكنت من جسم الامة . ولعمرى ان المراد بمؤتمر التربية انما هو ترقية الامة بكل الوسائل لا الاقتصار على التربية المخصوصة فى المدارس . ولا يخفى اننا اعضاء هذا المؤتمر لسنا من علماء التربية النابغين فيها ولسنا من المعلمين ولا من المفتشين فى ديوان المعارف

ومن الغريب اننا مع اهتمامنا وسعينا فى كل طريق يؤدينا الى الرقى والنجاح لم نعمل شيئاً فى سبيل الاصلاح الاجتماعى ، مع ان الطوائف

الاخرى من الهندوس والبرهمن قد سارت فى هذا الطريق خطوات.
ولكن السبب فى اهمال المسلمين هذه الوجهة من التربية العامة !

تذكرون ان المرحوم السيد احمد خان اصدر مجلة دورية سماها (تهذيب الاخلاق) ولم يكن مقصده بذلك الا الاصلاح العام فى الهيئة الاجتماعية الاسلامية لتسير التربية المدرسية مع التربية الاجتماعية يداً بيد. ولكن المرحوم السيد أحمد خان اشتغل عن تهذيب الاخلاق بكتاب تفسير القرآن الذى لم يصادف من المسلمين قبولاً وهو تفسير كما تعلمون عظيم. ثم انتهى الامر به الى تأسيس هذا المؤتمر ومدرسة عليكدة وكلاهما محبوب عند الامة الاسلامية. ومن ذلك يتضح لكم ان المرحوم السيد احمد خان كان يسعى فى سبيل ترقية اخلاق الامة واصلاح عاداتها بقدر ما يستطيع. ويظهر لكم ايضاً انه لم يجد فى ذلك الوقت من المعضدين والانصار كما نجد نحن اليوم. ومع كل هذا فقد ترك لنا مدرسة عظيمة اخرجت رجالا ذوى استعداد وكفاءة لتولى قيادة الامة. وحيث مضى الوقت الذى كانت المعارضات فيه قوية من المتمسكين بكل قديم فقد اصبح من الواجب ان نضيف على اعمال المؤتمر القيام بأعباء الاصلاح الاجتماعى. واقول ان هذه الخطوة تبعث فيه روحا جديدة وتنفخ فى صدور اعضائه حياة قوية

فانتم ترون ان التربية فى المدرسة والتربية فى الحياة يجب ان يتفقا ويصطحبا. واللازم الضرورى هو ان نسعى فى ترقية الامة. ومن المسلم ان التربية المدرسية تؤدى الى صلاح اجتماعى. ولكن مالم يقف الجمهور على معائبه ليجتنبها ومحاسنه ليتمسك بها فيكون تأثير التربية فى المدارس ضعيفاً

ويكون سيرنا فى سبيل الترقى بطيئاً . ويمكن ان يقال انه ربما لايحين الزمن الذى تكون فيه الامة كلها متعلمة حتى لايبقى فى ايدينا شىء ونكون قد اضعنا ممتلكاتنا وفقدنا نفوذنا . ويقول بعض الناس ان الزمن فى حد ذاته مصلح كبير ولكننى اؤكد لكم ايها السادة ان هذا الرأى سخيف ساقط. فما الزمن وماروح الوقت الامعنى لاتحادكم وسعيكم وما معنى اعتمادكم على الزمن واهمالكم الا الموت الزؤام الذى حل بغيركم من الامم الشرقية . وزيادة على ذلك فاقول لكم ان الحكومة تكون اول معضد لكم فى الاصلاح الاجتماعى ويمكن لكل موظف ان ينضم معكم علناو ينصركم رسمياً

واذكر لكم على سبيل المثال بعض الادواء الاجتماعية المحتاجة الى الدواء العاجل :

(اولاً) التبذير والاسراف فى الافراح والاعياد والمآتم . وهى لا تنتهى ولا تنقطع ولذلك لايجوز ابدا ان تنفق عليها الاموال الطائلة لانها تكفى وحدها لالقائنا فى وهدة الفقر المدقع . ولا اقول لكم لا تحتفلوا بافراحكم واعيادكم او مآتمكم ، ولكن اقول خففوا من نفقاتها بقدر ما يستطاع وغيروا فى نظامها على قدر ماهو لائق ولازم

(ثانيا) يوجد بيننا جم غفير من الرجال الاصحاء والنساء القويات اتخذوا التسول حرفة واعتمدوا على مكارم اخوانهم المسلمين فتراهم فى كل مدينة كالذباب يقتاتون من كسب غيرهم : ويوجد كذلك عدد عديد ممن لاحرفة لهم فى منازل اقاربهم بعائلاتهم واولادهم : فهؤلاء وامثالهم عالة على المسلمين وعقبة فى طريق تقدمهم المالى والادبى . افلا يوجد بيننا من يعلم

هؤلاء الكسالى قيمة العمل ويسير بهم فى طرق اشرف وارفع وانفع !

(ثالثاً) نرى عدداً كبيراً ممن يدعون الولاية والتقوى من المشايخ والفقهاء يعيشون فى الحقيقة عالة على غيرهم اذ تراهم يطوفون البلاد وينزلون ضيوفاً على الناس وتقدم لهم الهدايا وتذبح لهم الذبائح وتقام لهم الولائم وتعطى لهم النقود وهم لا يؤدون وعظاً ولا يحيون سنة بل هم فى الحقيقة يعلمون الناس البدع والخرافات . فالى متى نبقى فى مهامه الجهل والغرور نعتقد فى امثال هؤلاء القوم انهم واسطة بيننا وبين الله وهم عمال الغرور وآلات الفساد ؟ ولعمرى ان الرجل الذى يتسول ويعيش عالة على غيره لا يعلم سواه قيمة الحياة ولا معنى العمل وقد قال تعالى (وان ليس للانسان الا ماسعى)

(رابعاً) من العادات السخيفة التى يجب ان تذهب مع الزمن الماضى تمسك بعض العائلات التى تنسب لنفسها شرفا قديما متسلسلاً بمبدأ عدم الاختلاط بالعائلات الاخرى. فتراهم لا يقبلون بتزويج بناتهم او اولادهم من العائلات الاخرى وليس ذلك من الدين الاسلامى فى شىء . نعم ان من الحكمة ان تكون درجة الزوج والزوجة متساوية من جهة الثروة والمركز الاجتماعى ولكن من الجهل ان يمتنع الفقير عن تزويج ابنته برجل غنى لان الاول شريف النسب والثانى ليس كذلك . ومن الجهل ايضاً ان تكون قيمة الرجال بالعظام الرميمة لا بمراكزهم العالية ومعارفهم السامية . واضرب لكم مثلا بمدينة فى شمال الهند ليست احسن من غيرها ولا ادنى من سواها . وتتألف هذه المدينة من اربع عائلات هذه تنسب لنفسها شرف الانتساب الى المدينة المنورة وهذه الى غيرها وتراهم منقسمين على بعضهم

لا يختلطون ولا يتصاهرون . وفى ذلك مضار طبيعية كثيرة اقلها اتلاف النسل وضعفه فضلا عن الانشاق والانقسام . وقد جاء فى الآية (انما المؤمنون اخوة) ولافرق بين من تناسل من عربى مدنى اوعربى يمانى او هندى مسلم . وزد على ذلك ان السنيين منا والشيعة لايمتزجون ولا يتصاهرون مما يجر الى البلاء ويؤدى الى دوام التفرق والدمار

(خامساً) اوجه انظاركم الى تهافت الطبقة العالية منا وخصوصاً فى حيدر آباد على الخمور الاوروبية . وترى الافيون والشاندى والماداك والسندى (اسماء مغيبات) وغيرها من المواد المخدرة والمسكرة منتشرة بين المسلمين فى كل الاقطار الهندية . افلا يوجد بيننا من العلماء والنبهاء من يحذر الناس من عواقب هذه الشرور ويبين لهم المضار الناتجة من الانهماك فى شرب الخمور ليقلع الناس عنها : هل هذه الحالة ترضيكم وتشرفكم بين الطوائف الاخرى ؟ — وانا اقترح بعد ان ذكرت هذه الادواء بعض وسائل لتخفيف البلوى فاوجه انظاركم اليها :

(فمنها) يلزم ان يوجد فى كل مدينة وكل قرية مهمة ناد لالقاء الخطب والمواعظ فى اوقات معينة ليحضرها الناس . وان امكن فتؤسس جمعيات محلية لكل بلدة

(ومنها) البحث فى الطرق اللازمة لنشر التربية والتعليم بين النساء والبنات حتى لاتكون الجهالة والافكار القديمة عقبة فى طريق الناشئين

(ومنها) اتخاذ الوسائل لمنع زواج الاطفال الذين لم يبلغوا سن الرجولية فان هذا داء عضال منتشر بين المسلمين دون سواهم

(ومنها) انه يجب ان تكون عندنا منزلة للفضيلة والآداب بان نحقر مكانة كل رجل يشتهر بسوء الادب والرذائل ولا نسمح له بالوجود فى مجالسنا ومجتمعاتنا

هذه ايها السادة خلاصة سطحية قدمتها لكم لا لتكون هى انموذج العمل ولكن لتكون داعية الى حثكم للسير فى هذا الطريق. ولا انكر عليكم ان الاصلاح الاجتماعى اصعب منالا من سواه. والسبب فى ذلك ان الاصلاح الاجتماعى عندنا يرمى الى اقتلاع جذور عادات تأصلت فى النفوس ورسخت فى العقول مع جهل يحافظ الناس عليه وخرافات واوهام ينسب بعضها الى الدين كذبا وبهتانا. فالذين يريدون ان يخطوا بالامة الاسلامية خطوة فى هذا الطريق يجب عليهم ان يعدوا انفسهم لمقاومة عقبات راسخة كافية ان تصدهم عن سبيلهم لاول وهلة. لهذا ارى ان اول مانحتاج اليه لكل اصلاح هم رجال ذوو ثبات وعزيمة وقوة راسخة فى نفوسهم يضحون لاجل اصلاح بلادهم كل مرتخص وغال ولا يبالون بآراء الجهلاء وتسفيه الاغبياء. وانتم تعلمون ان كل من يطعن على عادات قوم ويحاول اصلاح بعض امورهم يرمى بالكفر والمروق عن الدين ويقابل بالرفض والسخط: وهكذا قوبل الانبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام

كفانا ايها السادة نوماً وخمولاً وكفانا جهلاً وغروراً وتمسكا بالخزعبلات والاوهام وكفانا انشقاقا على انفسنا وضعفا فى قلوبنا. اننا لسنا والحمد لله فى حالة جهل تقضى علينا بالموت ولسنا فى حالة ضعف تسوقنا الى الهلاك. بل لايزال فينا رمق من الحياة فاذا نحن تمكنا من وضع قدمنا

فى اول طريق الاصلاح واندفعنا الى الامام بقوة العزيمة خطونا الخطوة الاولى . ومن ذلك الوقت يمكننا ان نستريح قليلا ونترك الدفعة الاولى تسير بنا الى الغاية المقصودة : واريد بذلك ان صعوبة العمل لاتكون الا فى الاول فاذا اجتزنا العقبة الاولى فاستبشروا بحسن الخاتمة

خطبة (*)

《 اللورد أمبثل حاكم ولاية مدراس 》

« ايها الرئيس وايها السادة :

انى لسوء حظى لم اتمكن من فهم الخطبة البليغة التى القاها الآن حضرة (النواب محسن الملك) وانى اشكر حضرة (الشيخ عبد القادر) على ترجمته لى اياها وخصوصا لانه اجاد فى ترجمتها اذ ليس من السهل ان يتناول السامع خطبة ويسرد ترجمتها بمثل ما فعل حضرة الشيخ عبد القار . وانى ايها السادة اعجب كثيرا بمساعيكم واستقبل ما قاله النواب محسن الملك بصدر رحيب فانه شرح لى حقيقة المبدأ الذى يدور على محوره هذا المؤتمر لافى هذه الجلسة وحدها ولكن فى كل جلساته السابقة . وانا بكل سرور اؤكد لكم ان الحكومة تنظر الى خطواتكم هذه بعين الرضى والانشراح . واقول ايضاً انه لاتوجد حكومة عادلة فى العالم لايسرها ان ترى فريقا من رعاياها يخطو بنفسه الى ورود حياض العلوم والمعارف التى هى اس العمران ودعامة الرقى والفلاح

(*) مؤيد ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٢ عدد ٣٥٩٥

وانى على تمام الاعتقاد بانه قد قيل انى لا انوى ان القى خطبة كبيرة على مسامعكم ولازلت كذلك لااريدان اخوض فى غمرات مباحثكم. ولكنكم على كل حال تسمحون لى ان اوضح لكم السبب فى امتناعى وارجوكم رجاء خالصا قبل كل شيء ان تتيقنوا ان تأخرى عن الكلام ليس منشؤه عدم الاهتمام او المشاركة معكم فى مساعيكم اومن عدم الشعور بحالتكم ومقاصدكم التى اجتمعتم لاجلها فى هذا المكان. اجل ان السبب لبعيد جداً اذ ان تأخرى عن الخطابة يرجع الى شعورى بعدم كفاءتى لابداء آراء فى مسائل لست واقفا على الحقيقة فيها. والواجب على من يريدان يلقى نصيحة على احد ان يكون عارفا تمام المعرفة بمركزه الحقيقى ومايحتاجه وما هى الوسائل المؤدية اليه وما يتبع ذلك من النصائح الصادرة عن علم وروية. وقد وصلتنى دعوتكم منذ بضعة ايام كنت قبلها قد ارتبطت بمواعيد كثيرة ولولا ان لجنتكم افهمتنى ان وجودى بينكم يعد دليلا على مشاركتى اياكم فى مساعيكم ومقاصدكم لتعذر على المجىء. ولذا اعلنتهم برغبتى فى الحضور ولكن لاينتظرون منى خطبة فى موضوعهم الذى لم اتمكن من دراسته وبحثه. فارجوكم ان تعتبروا وجودى بينكم دليلا على مشاركتى لكم بكل جوارحى واحساساتى فى كل ما يتعلق بمساعيكم ومقاصدكم

ولقد اطلعت على تاريخ حركتكم هذه واطلعت كذلك على الخطبة البليغة المفيدة التى القاها رئيسكم فى هذا العام. والآن قد اتاح لى الحظ ان احضر اجتماعكم وان اسمع باذنى خطبكم ومباحثكم واقتراحاتكم. وانى مما رأيته من اصاختكم سمعا لاقوال الخطباء والتقاطكم لكل كلمة تخرج

من افواههم احكم بقوة الشعور المتمكنة من صدوركم واشهد ان هذا المؤتمر سيكون له نفع عظيم . وسأقرأ كل اعمالكم القادمة فى هذا المؤتمر بالاهتمام اللائق . وقد عرفت مما القاه رئيسكم انكم قد اتخذتم الوسائل للحصول على محل لمدرسة (مدرسئ اعظم) وانى مع سرور يخالج صدرى أؤكد لكم ان هذا الامر وصل الى الدرجة المرضية وان الحكومة قد ابتاعت اوراندى بغ (محل اوسراى) لتكون محلا للمدرسة المذكورة . والحكومة تتخذ كل الوسائل ليكون هذا المحل مؤديا للغرض كافلا لكل الحاجات المطلوبة . واحب ان تتخذوا هذا العمل دليلا عن مشاركة الحكومة لكم فى كل عمل اسلامى يقصد به نشر التربية والتعليم بينكم . وفضلا عن ذلك فان الحكومة تساعدكم بمنحكم القوى اللازمة لزيادة النجاح والفلاح

ويظهر لى انه من المقرر فى الاذهان ان هذه الحركة فى حاجة الى شيئين : الاتحاد والقيادة وخصوصا فى ولاية مدراس . واننى لهذا سررت جدا بانعقاد المؤتمر فى هذه المرة بمدراس وعسى ان تكون النتيجة مؤدية الى جمع قلوبكم واعتماد من يليق لزعامتكم وقيادتكم . ولا شك انه باتحادكم وحماسكم الناشئين من اليقين بصحة مبادئكم وصدق مقاصدكم تتوصلون حتما الى حل عويص المشاكل المرتبطة بالتعليم اللازم لكم من العلوم العصرية والتربية الدينية . وهى النقطة الوحيدة من حل كل مسئلة اجتماعية كيفما كان القوم وكيفما كانت حالتهم

ايها السادة : لا احب ان ازيد على هذا كلمة واحدة واكتفى بالثناء عليكم واعترافى لكم باخلاصى وحسن طويتى . »

جمعية الآداب الاسلامية (*)

« فى مدراس »

(المؤيد) نشرنا منذ بضعة ايام ترجمة الخطبة البليغة التى القاها العالم الفاضل عنايت حسين الهندى فى (جمعية الآداب الاسلامية) الهندية ووعدنا القراء ان نوافيهم بخلاصة اعمال هذه الجمعية والغرض الذى انشئت له لما فى ذلك من فائدة الاقتداء من جهة والسرور بنشاط اخواننا المسلمين فى البلاد الهندية من جهة اخرى. وقبل الشروع فى الموضوع نشكر اعضاء هذه الجمعية على اهدائهم للمؤيد نسخة من تقريرهم وخلاصة الموضوعات التى القيت فى جمعيتهم. والحق يقال اننا منذ ثلاث سنوات توسمنا فى مبدأ هذه الجمعية خيرا ولذلك والينا ارسال المؤيد الى مدراس باسمها مجانا حتى ورد ذكره بالثناء فى تقريرهم.

قلنا ان هذه الجمعية تأسست منذ ثلاث سنوات تحت رئاسة صاحب المكانة السامية حضرة والجى صاحب خان بها در ووكالة السيد الجليل محمد سيف دار صاحب بهادر (صاحب بهادر وصاحب خان بهادر) من اسمى الرتب الهندية التى تداولت من ايام دولة الموغول الاسلامية ولازالت الحكومة الانكليزية فى الهند تسير على اعطاء هذه الالقاب فى جملة ماتعطيه للكبراء من الهنديين.

(*) مؤيد ١٩ يوليو سنة ١٩٠٠ نمرة ٣١١٥

﴿ غرض الجمعية ﴾ — افتتح السكرتير العام تقريره بالغرض الذى انشئت له الجمعية فقال ما نصه: « ترى الجمعية ان تعلن على رؤوس الأشهاد الغرض الذى من اجله أسست ليقف اخواننا المسلمون فى جميع الاصقاع والامصار على مقاصدنا ولنبين لهم الاعمال التى قمنا بها بالرغم عن اهمال المسلمين واحتقارهم للجمعيـة فى بادىء الامر . ويمكننا ان نحصر الغرض فى العبارات الآتية :

(١) المحافظـة على التمسك باهداب الدين المحمدى الشريف (٢) ونشر تعليم اللغة العربية واللغة الفارسية مع تربية انكليزية عالية حرة (٣) وتفسير صريح عادل لخطة الحكومة تجاه المسلمين (٤) وتوليد روح الالفة والاتفاق (٥) واخيراً عرض حاجات المسلمين ومطالبهم على مسامع الحكومة الانكليزية متى وجدنا لذلك سبيلا وسبباً

نعم لا ننكر ان الجمعية لهذا اليوم لم تعمل اعمالا عظيمة تذكر فى سبيل من السبل التى ذكرناها . ولكن ليتذكر اخواننا ان هذا الواجب ليس بالامر الهين اللين واننا ابتـدأنا ولا نزال نعمل فى ظروف صعبة وامامنا عقبات شتى . الا اننا بحمد الله سائرون فى طريق الاعمال نقتفى آثار (جمعية كلكتا الاسلامية) التى سبقت فى هذا السبيل وارشدتنا الى الى هذا العمل الجليل . فهى اليوم تعمل لولايه كلكتا ومن فيها من المسلمين ونحن اخذنا على عاتقنا ما يخص ولاية مدراس . ومما يذكر فى هذا المقام ان جمعية كلكتا نجحت نجاحاً باهراً وحركت العواطف واستفزت الشعور الكامن حتى ظهرت نشأة من ابناء المسلمين عاملة حية عارفة بما يقف

امامها من العقبات والصعوبات . ولعمر الحق ان تأخر المسلمين وفقرهم المدقع وتقهقرهم دون مواطنيهم فى سبيل الوظائف وقلة المتعلمين منهم لمسائل تحتاج الى العمل والنشاط لاصلاح هذا الحال والا فتكون العاقبة وبالاً والعياذ بالله من ذلك .

﴿ اعمال الجمعية ﴾ — الاجتماعات العلنية بلغت فى السنة الاولى ٢٧ وفى السنة الثانية ٢٨ وفى الثالثة ٢٤ حضرها عدد عديد من المسلمين والقيت الخطب والمقالات الموضحة عنواناتها بعد عدا المناظرات والمباحثات المذكوره .

(المؤيد) نذكر هنا على سبيل الامثال اهم المقالات والمباحثات التى القيت من الجمعية . فمنها بحث فى الاعتماد على النفس — اختيار الوظائف والاعمال — قانون الصحة فى الدين الاسلامى — الطلاق فى الاسلام — فقر مسلمى الهند — الواجب على المتعلمين من المسلمين — بحث فلسفى فى تاريخ الخلفاء الخ

واهم المناظرات : هل الرجل ارقى عقلا من المرأة ؟ ما علاقة الاسلام بالرق ؟ هل الفلسفة تزيد او تقلل الاعتقاد فى الدين ؟ ايهما افضل : معيشة المتزوج او الاعزب من الوجهة الادبية ؟ هل لتربية المسلمين علاقة بالسياسة ؟ هل الاسلام يتفق مع الاكتشافات والعلوم العصرية ؟ هل من العدل ان يتحامل الكتاب الاوروپيون على الدين الاسلامى وصاحبه ؟ الزكاة فى الدين الاسلامي . اى الحالين يدل على اخلاق الرجل : النعيم ام الشقاء ؟ ايهما اسعد حالا : الرجل المتمدن العالم ام المتوحش الجاهل ؟ ايهما

انفع للبلاد الهندية : الصحافة الاهلية ام الصحافة الانكليزية الهندية ؟ هل فقر المسلمين فى الهند منشؤه منهم او من اسباب اخرى ؟ هل تتهذب الروح بغير الدين ؟ هل من العدل ان يحرم الواحد من وظيفة ما لانه يدين بالدين الفلانى مثلا ؟ الخ

هذا من جهة الاجتماعات وما التى فيها من المباحث التى كانت تنشر بعض الاحايين فى الجرائد أو تطبع وتوزع . ولا يخفى ان فى طيات هذه المباحث ونشرها فائدة كبرى من عدة وجوه وخصوصاً فيما يتعلق بالمقالات التى تبحث فى امور المسلمين وما يترتب على ذلك من نشر آراء الجمعية عند الحكومة ليكون المسلمون بذلك رأيا عاماً تحترمه الحكومة قبل كل شىء .

ونذكر فى هذا المقام قول احد فلاسفة الانكليز حيث قال « الامة كالهواء لا يشعر بوجوده الا متى تحرك ودوى فى الآذان »

﴿ المكتبة ﴾ — اسست الجمعية مكتبة فى سنة ١٨٩٨ تبرع لها افاضل المسلمين بعدة كتب نفيسة مذكورة اسماؤها واسماء المتبرعين بها فى الملحق التابع لهذا التقرير وجزى الله المحسنين خيراً

وفى هذا المقام نشكر حكومة مدراس فانها اهدت الجمعية بعدة كتب رسمية واحصائيات عمومية اعترافا بمقام الجمعية

﴿ قاعة المطالعة ﴾ — ويجاور المكتبة قاعة للمطالعة لكافة المريدين من المسلمين وفيها الكتب المذكورة غير الجرائد التى تبرع بها مجانا اخواننا المسلمون اهمها جريدة (محمدان) و (تيمس مدراس) و (مدراس ميل)

(ومخبردكن) و (النير الآصفى) وجريدة (المؤيد) العربية المصرية .

وزيادة عن ذلك فالجمعية تصرف من مالها على بعض اولاد المسلمين الذين اصيبوا بنكبات عائلية كادت لو لا مساعدة الجمعية لهم تمنعهم عن اتمام علومهم كما هو موضح فى ذيل التقرير عند جدول الايراد والمنصرف. ويعقب ذلك جدول شامل يشرح مقدار ما اعطى للجمعية من اموال المتبرعين ومقدار اشتراكات الاعضاء وجدول آخر عن المنصرف بحذافيره

(المؤيد) غرضنا من نشر هذه الخلاصة عدة امور اهمها شرح الخطة التى تسير عليها هذه الجمعية وخصوصاً فيما يتعلق بموضوعها وغايتها . فالباحث المدقق يرى من خلالها ان غرض الجمعية هو ان تكون بمثابة نفير يوصل صوت المسلمين الى مسامع الحكومة. وهذا غرض جليل فلا يستصغرنه القراء اذ هى بذلك تحذو حذو الجمعيات فى اوروبا التى تمثل فريقاً من الناس ذوى آراء مخصوصة. ومتى قويت شوكتهم اى ان صار لاعضائها مكانة فى النفوس اضطرت الحكومة ان تحترم رأى الجمعية لأنه صوت الرأى العام بشكل مقبول معقول . وفى ذلك فائدة هى من اعظم الفوائد السياسية والاجتماعية

وغرضنا ايضا من هذا التلخيص ان نبين طريقة العمل خطوة فخطوة وكيف ان حضرة رئيس هذه الجمعية يسير بها الى الغرض المقصود سلما فسلما ونقطة فنقطة فان الغاية تضيع بين الحدة والتهور والسرعة والطيش . وزد على ذلك فائدة نشر هذه التقارير مبينة اسماء الاعضاء وحساب الجمعية بقليله وكثيره واسماء الكتب الموجودة فى مكتبتها والجرائد اليوميـة والعلمية

ليقف الناس على الاعمال والحسابات . وفى مصر بعض من الجمعيات لا يعرف الاعضاء ولا الناس لها حسابا ولا يرى الغائبون عنها اعمالها مدونة فى تقاريرها مما يضعف الثقة ويسير بالجمعية الى الانحطاط كما هو الحاصل فى بلادنا : فعسى ان يكون فى نشرنا لهذه الخلاصة الفائدة التى نتمناها . وليس ابعث على العمل من النظر الى المثال الواضح والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

جمعية حماية الاسلام (*)

« فى لاهور »

جاء فى جريدة (وكيل) الهنديه الغراء الصادرة بتاريخ ٢٧ شوال فى الكلام على (جمعية حماية الاسلام) ما يأتى :

« اسست هذه الجمعية فى (لاهور) سنة ١٨٨٤ ميلادية وموضوع اعمالها كما يأتى :

(اولا) — دفع شبه المخالفين للاسلام وردها بالاجوبة المقنعة مع مراعاة الادب والاحترام عملا بآية « وجادلهم بالتى هى احسن »

(ثانيا) — تعليم اطفال المسلمين ذكوراً وإناثاً وتربيتهم تربية صالحة لمعاشهم ومعادهم

(ثالثا) — اصلاح اخلاق المسلمين وآدابهم وحضهم على تقويم امور

(*) مؤيد ١٠ مارث سنة ١٩٠١ عدد ٢٣٠٦

دينهم ودنياهم

وقد خصصت هذه الجمعية رجلا من فاضل علماء المسلمين للتطواف في البلدان والوعظ والحض على الاعتصام بحبل الاسلام وسنة خير الانام. وانشأت في لاهور خمس مدراس لتعليم البنات وكانت وارداتها في السنة الاولى من تأسيسها ثمانمائة روبية ومصاريفها اربعمائة . وفي السنة الثانية اتسع نطاق الجمعية وكثرت الطالبات في المدارس فانشأت خمس مدارس اخرى في لاهور ايضاً . وفي السنة الثالثة زيدت على ذلك مدرستان ايضاً فجملة مدارس هذه الجمعية للبنات اثنتا عشرة مدرسة . وعلى هذه النسبة اتسعت مواردها ومصارفها

ومما انشأته هذه الجمعية ايضاً دار للايتام لا نظير لها في البلاد الاسلامية. وهذه الدار يعلم فيها ايتام المسلمين ويقام فيها بشؤون تربيتهم وتهذيبهم الى بلوغ سن الرشد فيزوجن ان كن بنات ويكدحون في طلب المعيشة ان كانوا بنين . وقد لاحظ الحكام الاوروپيون في لاهور تحسينا كبيرا في احوال الناشئين من أثر تربية هذه الدار فاثنوا على همم رجال الجمعية وجهروا بتعضيدهم فيها

وفي السنة الرابعة من تأسيس تلك المدارس اضافت الجمعية اليها مدرسة أخرى واخذوا بعد ذلك يبذلون الهمة في تصنيف الكتب النافعة للاسلام والمسلمين وترجمتها من العربية الى الاوردو . وأنشأت ايضاً مجلة باسم (نصاب الصبيان) وهي رسالة دورية تحتوي على مالا بد منه للصغير من معرفة الصلاة والطهارة وبقية العبادات والعقائد وبالجملة ما يجب على

المسلم معرفتـه وحفظه ليكون مسلما . وهى بالعربية والاوردية تدرس فى تلك المدارس وتعلم للمبتدئين وقد اتضح انها من انفع الكتب الابتدائية واشدها حاجة لابناء المسلمين .

وهكذا اخذت الجمعية ترقى نظام مدارسها الى السنة السادسة فأنشأت فيها قسما داخلياً وجد فيه الطلبة من الراحة والرفاهية مالا يجدونه عند اهليهم. وفى السنة السابعة اشترت الجمعية القصر الذى هو محل ادارة اعمالها الآن بثلاث عشرة الف روبية وصدر قرار من الحكومة عندئذ الى جميع المحاكم والمستشفيات والبيمارستانات فى تلك الديار بتسليم ايتام المسلمين الى (دار اليتامى) الخاصة بجمعية حماية الاسلام وفوق ذلك ساعدتها الحكومة بكل ما تنفع به المساعدة

ثم اسست الجمعيـة (الكالج) اى الكلية الموجودة فى لاهور الآن وانشىء التعليم العالى فيها بكل فروعه وسارت على خطة الثبات والنمو حتى اصبحت موضع ثقة المسلمين فى لاهور وما حواليها :

فبارك لله فى همم اعضاء هـذه الجمعية وجزاهم عن الاسلام خير الجزاء . آمين

